فوائد وفرائد

تحقيق
ياسر أسعد

جمع وترتيب
د. أحمد فريد



فوائد وفرائد

إعداد

الدكتور

أحمد فريد

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

تحقيق

ياسر أسعد

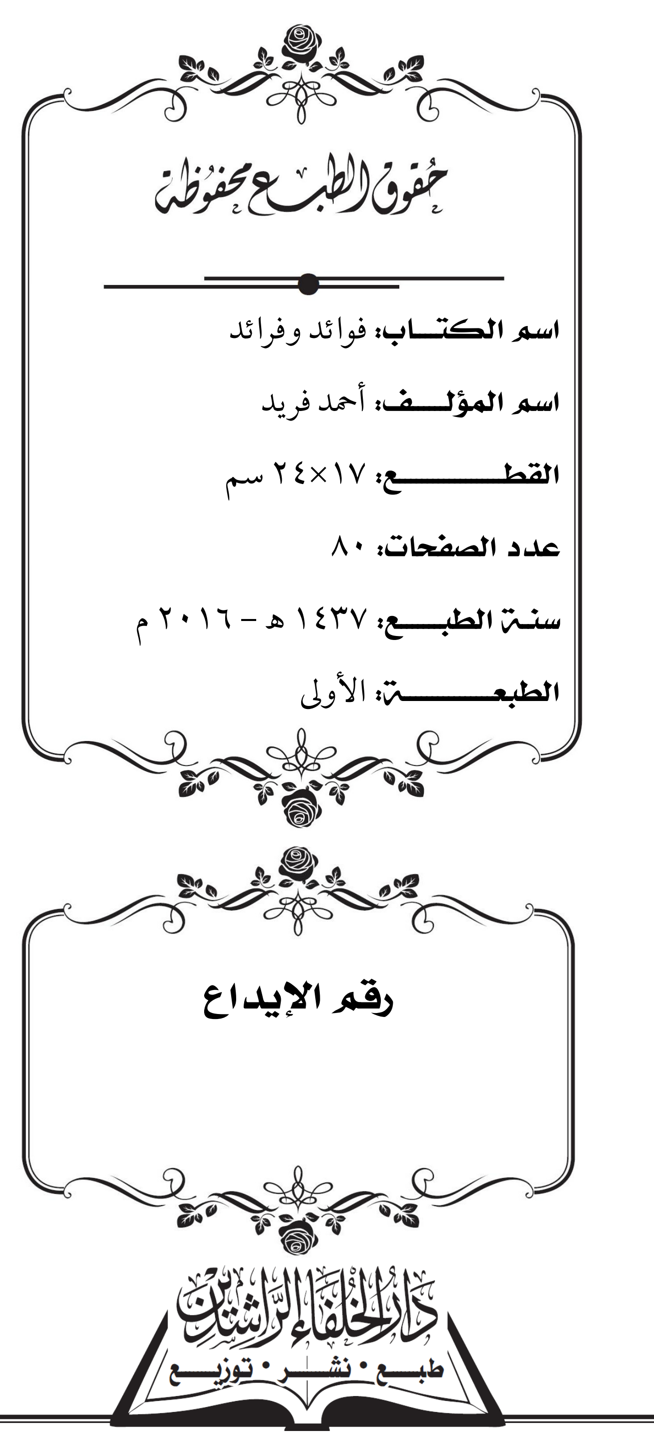
توزيع

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦



الإسكندرية مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧



حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب: فوائد وفرائد

اسم المؤلف: أحمد فريد

القطع: ١٧×٢٤ سم

عدد الصفحات: ٨٠

سنة الطبع: ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

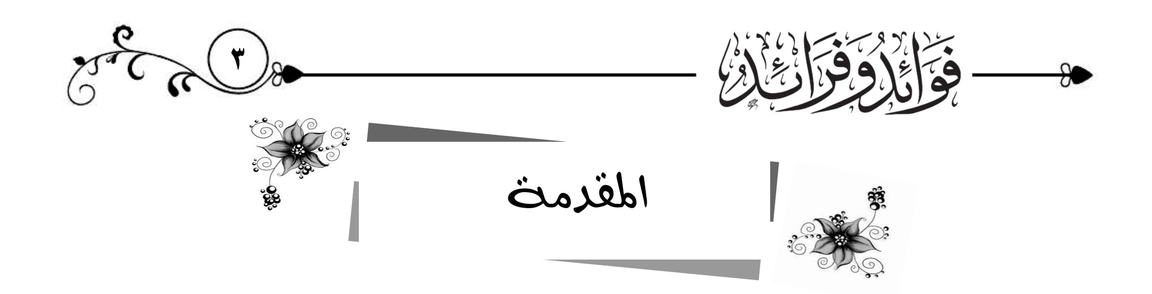
الطبعة: الأولى

رقم الإيداع

دار الخلفاء الراشدين
طبع • نشر • توزيع

الإسكندرية: أبو سليمان – ش عمر أمام مسجد الخلفاء الراشدين

الإدارة: ٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨ – المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

ثم أما بعد،،

فإن أصدق الحديث كتاب الله -تعالى-، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

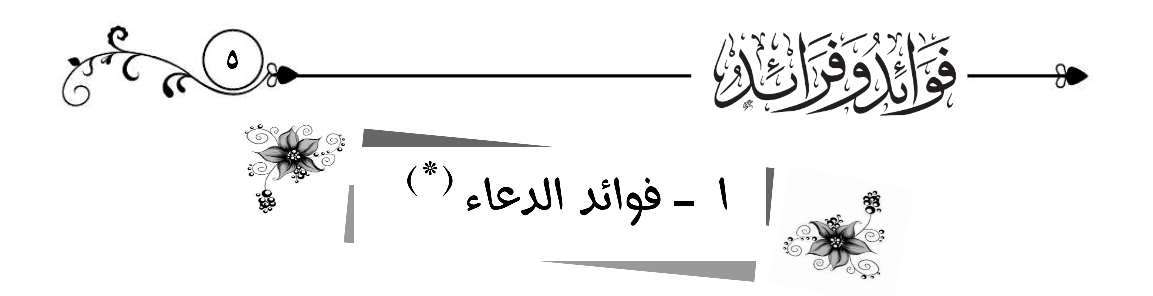
ثم أما بعد أيضًا:

فهذه مقدمة كتابي «فوائد وفرائد»، أسأل الله -تعالى- أن يتقبله بقبول حسن، وأن يفتح له قلوب العباد، وأن يجعله عملًا صالحًا أجد بره وذخره يوم المعاد، وقد ذكرت فيه جملة من الفوائد، قد يعز على طالب العلم الوقوف عليها، فضلًا عن عامة المسلمين، كفوائد الدعاء، وفوائد الابتلاء، وفوائد الصلاة على النبي ﷺ، وفوائد التوحيد، وفوائد الذكر، وكما يقولون: «من خفيت عليه ثواب الأعمال، ثقلت عليه في جميع الأحوال»؛ فمعرفة فوائد العبادات مما يعين على القيام بها حق القيام، مع الإيمان والاحتساب، ومعرفة فوائد الابتلاء يعين على الصبر على البلاء، والرضا بمُرِّ القضاء.

وضمنت الكتاب أيضًا بعض الموضوعات الفريدة المفيدة، كبيان عظمة القرآن وهدايته وثواب تلاوته، وشرحت الأسباب العشرة الجالبة للمحبة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله في كتابه: «مدارج السالكين»، وتحت عنوان «الوظيفة والغاية» بينت بالأدلة الوظيفة التي خلقنا من أجلها، والغاية التي يجب علينا أن نسعى لتحصيلها، وذكرت في الكتاب أيضًا نعمة العمر والحياة، وشرحت أيضًا أقسام الناس في التوبة التي ذكرها الحافظ ابن رجب في كتابه «لطائف المعارف»، ثم تكلمت عن فضل العلم على المال، اختصارًا لما ذكره ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة»، نسأل الله –تعالى– أن لا يحرمنا من البحث والإفادة، وأن يرزقنا الحسنى وزيادة، وهذه الموضوعات المطروحة في هذا الكتاب « فوائد وفرائد » تصلح جميعها لخطب الجمعة والمحاضرات، اسأل الله –تعالى– أن ينفع بها، وأن يفتح بها، والكتاب يحتمل الإضافة في طبعات مقبلة –إن شاء الله تعالى–؛ لأن اسمه يتسع لذلك، ولا أنسى أن أشكر لابني الحبيب/ ياسر أسعد جهده في تحقيق الكتاب، اسأل الله –تعالى– أن يجد ذخره يوم الحساب، والله الموفق للطاعات، والهادي لأعلى الدرجات،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





١ - فوائد الدعاء (*)

١ - الدعاء استجابة لأمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ، قال الله -تعالى-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال النبي ﷺ: «**إذا سألت فاسأل الله**»[(١)] وما استجلب العبد خيرًا في الدنيا والآخرة بمثل الاستجابة لأمر الله ﷻ، وأمر رسوله ﷺ.

٢ - تحقيق العبودية لله ﷻ، فالدعاء هو العبادة، كما قال النبي ﷺ، فالعبادة هي التذلل والخضوع، والدعاء فيه إظهار الفقر والنقص والحاجة إلى الله ﷻ، قال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»، ثم تلا قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[(٢)]، فسبحان الله العظيم ذي الكرم الفياض، والجود المتتابع، جعل سؤال العبد حوائجه، وما يصلحه في الدنيا والآخرة عبادة، وأمر به، واعتبر الذين لا يدعونه ﷻ متكبرين عليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

(*) معنى الدعاء: قال الطيبي: «هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله -تعالى-»، وقال المناوي: «هو لسان الافتقار بشرح الاضطرار» «نضرة النعيم».

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩/ شاكر)، والحاكم (٦٣٠٤)، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والحديث صححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧)، و«المشكاة» (٥٣٠٢).

وقوله: «**فاسأل الله**» أي: وحده، لأن غيره غير قادر على العطاء والمنع ودفع الضُّر وجلب النفع. «أحوذي».

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٧٦)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (١٨٣٠٤/ شاكر)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٤٠٧)، و«المشكاة» (٢٢٣٠)، و«صحيح أبي داود» (١٣٢٩).

وقوله: «**الدعاء هو العبادة**» أي: هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تُسمى عبادة لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عما سواه، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياهُ، قائمًا بوجوب العبودية، معترفًا بحق الربوبية، عالمًا بنعمة الإيجاد، طالبًا لمدد الأمداد على وفق المراد وتوفيق الإسعاد. «مرقاة المفاتيح».

٣ – الدعاء تحقيق لتوحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية هو إفراد الله ﷻ بأفعاله، فهو ﷻ الملك المتصرف في ملكه، المنعم بالنعم كلها، المحيي المميت، الذي يجمع الناس ليوم لا ريب فيه، ولولا أن الداعي يعتقد أن الله ﷻ بيده الخير كله، يعطي ويمنع، ويعز ويذل، وبيده خزائن السماوات والأرض، لما دعا إليه ﷻ.

٤ – الدعاء تحقيق لتوحيد الأسماء والصفات، كما قال –تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فالعبد يسأل الله ﷻ الرزق؛ لأنه يعتقد أن الله ﷻ هو الرزاق، ويسأله المغفرة؛ لأنه يعلم أن الله ﷻ هو الغفور، ويسأل الله ﷻ التوبة؛ لأنه يعتقد أن الله ﷻ هو التواب.

٥ – الدعاء تحقيق لتوحيد الألوهية، وهو التوحيد القصدي الطلبي الإرادي، وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة، تحقيقًا لكلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، فالدعاء عبادة لا يجوز للعبد أن يتعبد بها لغير الله ﷻ، كما قال النبي ﷺ: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»(١)، وكان أحد الناس يتردد على بعض الملوك، فقال له أحد العلماء: «يا هذا، تذهب إلى من يسد دونك بابه، ويظهر لك فقره، ويخفي عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه، ويظهر لك غناه، ويقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾».

لا تسألن بُني آدم حاجة — وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله — وبني آدم حين يسأل يغضب

قال النبي ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»(٢).

٦ – الدعاء سير على طريق الأنبياء، والدارس لقصص الأنبياء يرى كيف كانوا يكثرون من الدعاء.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وأحمد (٩٦٦٢/ شاكر)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٤١٨)، و«المشكاة» (٢٢٣٨).

فهذا نوح -عليه الصلاة والسلام- يقول: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وهذا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- يقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم]، وهذا موسى -عليه الصلاة والسلام- يقول: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ [طه]، وهذا يوسف -عليه الصلاة والسلام- يقول: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وهذا نبينا ﷺ قال يوم الأحزاب: «**اللَّهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللَّهم اهزمهم وزلزلهم**»[(١)].

٧ - الدعاء سبب لحصول السكينة، فهذا موسى عليه السلام لما تراءى الجمعان وقال من معه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، قال: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وهذا نبينا الكريم ﷺ لما قال له الصديق وهما في الغار: «لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا»، فقال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[(٢)]، قال الله -تعالى-: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

٨ - من تعود على سؤال الله ﷻ، وأنزل الحوائج به ﷻ، صان بذلك نفسه عن سؤال غيره، والشكوى لله ﷻ لا تنافي الصبر، أما الشكوى لغير الله فهي تنافي الصبر.

قال أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقال الله -تعالى-: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وقال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٢٨)، عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، والنسائي (٣٠٩٦)، وأحمد (٣/ شاكر)، عن أبي بكر رضي الله عنه.

وقوله: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**» معناهُ ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد وهو داخل في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] «النووي شرح مسلم».

﴿أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، مع قوله: ﴿فَصَبْرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

٩ – الدعاء من الذكر، والذكر من أفضل العبادات، وإنما شرعت كل العبادات إقامة لذكر الله ﷻ، وقد قال الله ﷻ عن الصلاة أنها: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «في الصلاة مقصودان عظيمان: فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي إقامة لذكر الله ﷻ، وكونها إقامة لذكر الله ﷻ أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أسبح الله ﷻ تسبيحات، خير لي من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله ﷻ».

وقال: «إذا أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه، وبخلتم عن المال أن تنفقوه، وجبنتم عن العدو أن تقاتلوه، فأكثروا من ذكر الله ﷻ».

١٠ – الدعاء إحسان ظن بالله ﷻ، فلولا أن العبد يعتقد أن الله ﷻ سوف يعطيه سؤله فسأل، والله ﷻ يقول في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[(١)].

١١ – الدعاء فرار من غضب الله ﷻ، فالله ﷻ يغضب على العبد إذا لم يسأله، كما قال النبي ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[(٢)].

١٢ – الدعاء سبب لتفريج الكربات، وقضاء الحاجات؛ قال نوح –عليه الصلاة والسلام–: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٞ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقال ذو النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣)، وابن ماجه (٣٨٢٢)، وأحمد (٧٤١٦)، وفيه زيادة «**أنا عند ظن عبدي بي، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر**» عند ابن حبان (٦٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله.

(٢) سبق الكلام عليه.

١٣ – الدعاء من أعظم الإحسان إلى الخلق؛ ولذا كان من بر الوالدين أن يدعو المسلم لهما، فيقول كما أمره الله ﷻ: ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤].

والتابعون للمهاجرين والأنصار يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

١٥ – الدعاء ثمرة التوكل على الله ﷻ؛ لأن التوكل هو اعتماد القلب على الله ﷻ في جلب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، والدعاء تحقيق لهذا التوكل، فالتوكل عمل القلب، والدعاء عمل الجوارح.

١٦ – الدعاء سبب لمحبة الله ﷻ، وهي غاية العبادة؛ لأن العبادة هي كمال الحب مع تمام الذل، فإذا دعا العبد ربه ﷻ، واستجاب الله ﷻ له، فإنه يزداد محبة لله ﷻ؛ لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.







٢ – عظمة القرآن وهدايته وثواب تلاوته (*)



القرآن عظيم لعظمة من تكلم به، وهو الله ﷻ.

وعظمة من نزل به، وهو جبريل عليه السلام: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء].

وعظمة من نزل عليه، وهو نبينا الكريم ﷺ، سيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين.

وعظمة الأمة التي نزل إليها، وهي أمة محمد ﷺ قال الله –تعالى-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعظمة الزمان الذي نزل فيه: في ليلة القدر: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، وفي رمضان: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وعظمة المكان الذي نزل فيه: مكة المكرمة أو المدينة المنورة.

وعظمة اللغة التي نزل بها: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، باللغة العربية لغة أهل الجنة.

وقد أقسم الله ﷻ قسمًا عظيمًا، والعظيم لا يقسم إلا بعظيم، إنه لقرآن كريم، فقال ﷻ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة].

(*) وقال الدكتور محمد قاسم منسي: «هو كتاب الله –تعالى–، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، بلفظ عربي مبين، والمنقول إلينا بالتواتر» «مدخل لدراسة الشريعة».

وقال -تعالى-: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، أي: لو أن قرآنًا من سلطانه، وهيمنته، وعظمته، أن يحرك الجبال، أو يقطع الأرض، أو يكلم الموتى؛ لكان هذا القرآن، وحذف الجواب للعلم به من السياق.

وقال ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، أي: لو نزل هذا القرآن على جبل، وتفهم ما فيه، لرأيت الجبل على صلابته، خاشعًا متصدعًا من خشية الله.

وإنما ينتفع بالقرآن أهل الإيمان به، أما أهل الكفر والشكوك والريب فلا يزدادون به إلا خسارًا، قال -تعالى-: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، فهو هداية كاملة للمؤمنين، وشفاء لما في الصدور من الشبهات والشهوات، والذين لا يؤمنون به العيب فيهم؛ ففي آذانهم وقر – أي: طبقة عازلة – تمنع وصول القرآن إلى قلوبهم، وهم كذلك في ضلال بعيد.

فالقرآن كتاب هداية، ولكن الهداية لا تصل إلى قلوبهم، لوجود الوقر في آذانهم، ولأنهم في ضلال بعيد لا يسمعون هدايته، كمن نناديه عليه وهو في مكان بعيد، وانتفاع العبد بالقرآن بحسب إيمانه، وقد قرر أهل السنة والجماعة أن الناس يتفاوتون في درجات الإيمان، فكلما كان المسلم أكثر إيمانًا يكون انتفاعه بالقرآن أكثر، وهدايته به أتم.

سمع غلامٌ -شهده عمر بن الخطاب رضي الله عنه- قوله -تعالى-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، فقال الغلام: «على قلوب أقفالها حتى يفتحها الله ﷻ»، فأعجب به عمر، فلما استخلف عمر استعمله، فهذه الأقفال هي أقفال الغفلة، فلما فتحت هذه الأقفال، استشعر العبد حلاوة القرآن وتأثر به.

صلى ابن أبي أوفى -قاضي البصرة- بالناس الفجر بسورة المدثر، فلما بلغ قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر]، أخذته شهقة فمات، وكان الحسن يكثر البكاء ويقول: «أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي»،

من لم يكن له مثل تقواهم، لا يدري ما الذي أبكاهم[1].

ومن لم يشاهد جمال يوسف، لا يدري ما الذي آلم قلب يعقوب.

من لم يبت والحب حشو فؤاده ... لم يدر كيف تفتت الأكباد

فكلما ازداد إيمان العبد، وازداد حبه للقرآن يكون انتفاعه به أتم، ففي العمرة، أو الحج، أو الاعتكاف، في أجواء الإيمان التي يزداد فيها الإيمان يستشعر العبد حلاوة القرآن، ويصل القرآن إلى شغاف قلبه، بخلاف سماعه في أماكن الغفلة أو أوقات الغفلة.

القرآن كتاب هداية:

قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فكلما اقترب المسلم من القرآن، وأكثر من سماعه وتلاوته؛ يكون أقوم عقيدة، وأقوم أخلاقًا، وآدابًا، وأقوم أحوالًا، وأقوالًا، وأعمالًا.

فهداية القرآن في العقيدة أكمل هداية، فاسمع قوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص]، وقوله ﷻ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فانتظام أمر العالم، يدل على أن إلهه واحد، فيستحيل أن يكون للكون إلهان، والأمور منتظمة، تسير بقوانين ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل، وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

---

(١) وقيل لحكيم: «ألا تعظ فلانًا؟» فقال: «ذلك على قلبه قفل ضاع مفتاحه، فلا سبيل إلى معالجة فتحه». «الذريعة إلى مكارم الشريعة».

ورد القرآن على شبهات اليهود والنصارى، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران].

وبين القرآن أن العقيدة ليس فيها تنازلات، أو مداهنات، فأجاب على من أشار على النبي ﷺ أن يعبدوا إلهه سنة، وأن يعبد آلهتهم سنة، وقد يقبل هذا العرض أصحاب الفكر المصلحي، فيقول: سوف يجدون حلاوة عبادة الله ﷻ إذا عبدوا إلهنا سنة[1]، فنزل قوله ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون].

القرآن يربي في قلب المؤمن الملكات الوجدانية، فيجعله يستشعر تقوى الله ﷻ، وهو يسمع: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ [المجادلة: ٧]، ويستشعر الخوف من الله ﷻ عندما يسمع: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

القرآن يغرس في قلب المؤمن التوكل على الله ﷻ، في مثل قوله -تعالى-: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

---

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» (٨/٥٠٨ ترتيب الشاملة): «وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله -تعالى- هذه السورة».

القرآن يربي المؤمن على حبّ الله ﷻ، وحب رسوله ﷺ، في مثل قوله -تعالى-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي مثل قوله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

القرآن يهدي المؤمن إلى أقوم الآداب؛ ففي آداب النظر يقول ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠]، وقوله ﷻ: ﴿يَغُضُّوا۟ ﴾ فعل مضارع، لم يسبقه ناصبٌ ولا جازمٌ، فلماذا حذفت النون؟ يقولون: لأن هناك أداة شرط مقدرة أن الله ﷻ يقول: إذا قلت للمؤمنين: غضوا، يغضوا؛ لأن مقتضى الإيمان امتثال أوامر الله ﷻ.

وقال -تعالى- في آداب الاستئذان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٣٧]، فلا يكفي مجرد الإذن، حتى تستشعر أن صاحب البيت يأنس بك، ويفرح بقدومك، وأن الوقت مناسبٌ لزيارتك.

القرآن يهدي إلى بر الوالدين، وصلة الأرحام، قال ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال -تعالى-: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١]، والمعنى: اتقوا الله، واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

فالقرآن يهدي إلى أقوم العقائد، وأقوم الأخلاق، وأقوم الآداب، وأقوم الأقوال، وأقوم الأعمال، فمهما اقترب المسلم من القرآن وأكثر من سماعه وتلاوته، يكون أقوم عقيدة، وأقوم أخلاقًا، وأقوم آدابًا، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

بقي أن نقول: إن التقرب بالقرآن من أعظم أنواع القرب، فليس هناك عملٌ صالحٌ ترتب عليه من الثواب ما ترتب على تلاوة القرآن، قال النبي ﷺ: «**اقرءوا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه، الحرف بحسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، أما إني لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر**»[1].

والقرآن من الذكر، بل هو أفضل الذكر، وثواب الذكر أكثر من غيره من الأعمال، كما قال ابن مسعود: «لأن أسبح الله ﷻ تسبيحات أحبُّ إليَّ من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله»، والدينار هو: العملة الذهبية، وقال: «إذا أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه، وبخلتم عن المال أن تنفقوه، وجبنتم عن العدو أن تقاتلوه، فأكثروا من ذكر الله ﷻ».

وسوف ترى حين ينجلي الغبار أفرس تحتك أم حمار

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من سره أن يعلم أنه يحب الله، فليعرض نفسه على القرآن، فإن أحب القرآن، فإنه يحب الله، فإن القرآن كلام الله».

وقال عثمان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبكم، ما شبعت من كلام ربكم».

فكلما سلم القلب من الشبهات والشهوات، أحب القرآن. ومن السهل اليوم أن يجعل المسلم القرآن كاملًا بالقارئ الذي يحب على جهازه المحمول، فيسمع القرآن وهو ينام، وهو يأكل، وهو في سيارته، فلا يكل ولا يمل من سماعه، بل إذا كان يحب الله فعلًا يشتاق إلى كلامه، ويكون أسعد أوقات يومه، هو وقت الورد القرآني.

---

(١) قلْتُ: بهذا اللفظ أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١/ ٢٨٥)، والديلمي (١/ ١٣)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٦٦٠): «هذا إسناد جيدٌ»، وصححه في «صحيح الجامع» (١١٦٤)، وتمامه: «**ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر فتلك ثلاثون**».

وعند الترمذي (٢٩١٠)، والحاكم (٢٠٨٠) مختصرًا، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفيه: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميمٌ حرف**»، والحديث صححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٤٦٩)، و«المشكاة» (٢١٣٧).

من حب النبي ﷺ للقرآن:

كان يقوم به حتى ترم ساقاه، وتفطر قدماه حتى أشفق عليه ربه ﷻ، فنزل قوله -تعالى-: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه]، وقال لابن مسعود رضي الله عنه: «**اقرأ عَلَيَّ القرآن**» قال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «**إني أحب أن اسمعه من غيري**»، فقرأ ابن مسعود من أول سورة النساء إلى قوله -تعالى-: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء]، قال النبي ﷺ: «**حسبك**»، فنظر ابن مسعود إلى النبي ﷺ، فإذا عيناه تذرفان[1]، واستمع إلى أبي موسى الأشعري، وكان قد أعطي مِزمارًا من مزامير آل داود، وقال لأبي موسى: «**إني استمعت إلى قراءتك البارحة**»، فقال أبو موسى: لو اعلم أنك تستمع إليَّ لحبرته لك تحبيرًا[2].

فحب القرآن علامة على حُبِّ الله ﷻ، فلو أن لك شخصًا تحبه غاية الحب، وغاب عنك عشر سنين، ثم أرسل لك خطابًا، كم يكون فرحك به؟ تحمله في جيبك وتخرجه كل فترة تنظر فيه لعلك تفهم منه شيئًا جديدًا، أو تقرأ ما بين السطور.

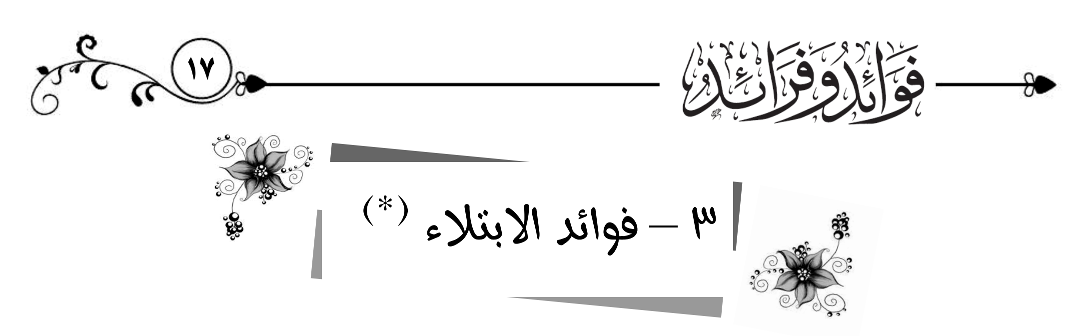
كذلك من علامة المؤمن الصادق أن يزداد إيمانه بقراءة القرآن وسماعه، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٥٠، ٥٠٥٥)، ومسلم (٨٠٠)، وأبو داود (٣٦٦٨)، والترمذي (٣٠٢٥)، وابن ماجه (٩١٩٤)، وغيرهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفي رواية: «**إني اشتهي أن اسمعه من غيري**»، وفي رواية: «فرأيت دُمُوعَهُ تسيلُ».

قوله: «تذرفان» أي: تدمعان، وبكاؤه ﷺ إشفاق على المقصرين من أمته، لما تضمنته الآية من هول الموقف، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣)، وابن حبان (٧١٩٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤٧٠٨)، واللفظ لهما وفيه «لحبرت لك تحبيرًا»، **والتحبير**: أي: التحسين.



٣ – فوائد الابتلاء (*)

ذكر العلماء للبلاء فوائد، فمن ذلك:

١ – معرفة عز الربوبية، فالرب ﷻ هو الملك المتصرف، يفعل ما يشاء، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، فالله ﷻ يبتلي من شاء بما شاء؛ لأن الرب هو الملك، وهو المربي، ولو أن الله ﷻ عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم؛ لأن المتصرف في ملكه غير ظالم، وقيل: لأنهم لم يقوموا بشكر نعم الله ﷻ عليهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم.

٢ – معرفة ذل العبودية، فليس للعبد أن يعترض، ومن لم يصبر صبر الكرام، سلا سلو البهائم، والعاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ويقولون: الحيلة فيما لا حيلة فيه الصبر، فليس في مقدور العبد أن يدفع قدر الله ﷻ، فالله ﷻ يبتلي الأمراء بما يبتلي به الفقراء، فكلهم عبيد الله ﷻ، ولذا كان من السنة لمن أصيب ببلاء أن يقول: «**إنا لله وإنا إليه راجعون، اللّٰهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها**»[(١)]، فقوله: «**إنا لله**» أي: نحن ملك لله ﷻ، يتصرف فينا كيف يشاء، ونحن راجعون إليه، موقوفون بين يديه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

٣ – البلاء يفتح على العبد أبوابًا من العبادات؛ كالإخلاص، والإنابة، والتضرع، والدعاء، والصبر.

(*) الابتلاء: تدل على نوع من الاختبار، من ذلك قولهم: بُلي الإنسان وابتلاه الله –تعالى–، أي: اختبره.
ويكون البلاء بالخير والشر، والله –تعالى– يبلي العبد بلاءً حسنًا وبلاءًا سيئًا، وذلك راجع إلى معنى الاختبار؛ لأنه بذلك يختبر صبره وشكره. «نضرة النعيم».

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩١٨)، وابن ماجه (٥٩٨)، وأحمد (٢٦٦٣٥، ٢٣/٦٦٧ شاكر)، وغيرهم عن أم سلمة رضي الله عنها.

أما الإخلاص: فقد أخبر الله ﷻ عن المشركين أنهم إذا ركبوا الفلك وجاءتهم ريح عاصفة، أخلصوا الدعاء لله ﷻ، والله ﷻ ينجيهم ببركة هذا الإخلاص المؤقت، وهو يعلم أنهم سيعودون للشرك مرة ثانية، يروى أن عكرمة بن أبي جهل، لما فتح النبي ﷺ مكة المكرمة فرَّ فركب البحر، وأتت ريح عاصفة كادت تهلكهم، فقال من في السفينة: إنه لا ينجيكم إلا أن تدعوا الله مخلصين له، فقال عكرمة: إذا كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي في البر غيره، وعاهد الله لئن أنجاه من هذه ليعودن إلى محمد ﷺ، فيجده رؤوفًا رحيمًا، فلما أنجاه الله ﷻ عاد إلى النبي ﷺ بالمدينة، وأسلم وحسن إسلامه واستشهد في معركة اليرموك رضي الله عنه.

أما الإنابة: فهي الرجوع إلى الله ﷻ، وكم شاهدنا من أناس كانوا معرضين عن الله ﷻ، وبسبب بلاء تابوا وأنابوا، ورجعوا إلى حظيرة الإيمان والعبودية لله ﷻ.

أما التضرع: فقد قال الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وإذا أحب اللهُ عبدًا ابتلاه ليسمع تضرعه.

أما الدعاء: فلا شك أن العبد العاقل يكثر من الدعاء في أوقات الشدة والابتلاء؛ لأن الدعاء إظهار الفقر والنقص والحاجة إلى الله ﷻ، فالله ﷻ هو وحده القادر على جلب كل ما يصلح العبد، ودفع ما يضره، والعبد لا يجوز له أن يظهر فقره وحاجته واضطراره، إلى غير الله ﷻ، ولذا قال النبي ﷺ: «**إذا سألت فاسأل الله**»[1].

أما الصبر: فهو من أعظم العطايا الإلهية، كما قال النبي ﷺ: «**ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءًا خيرًا وأوسع من الصبر**»[2]، وما أعطى الله ﷻ أحدًا نعمة ثم انتزعها منه، وعاضه مكانها الصبر، إلا كان ما عوضه خيرًا مما انتزعه.

---

(١) صحيح: وتقدم مرارًا.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، وأبو داود (١٦٤٤)، والترمذي (٢٠٢٤)، والنسائي (٢٥٨٨)، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قوله: «**وأوسع**» أي: أشرح للصدر، قوله: «**من الصبر**» وذلك لأن مقام الصبر أعلى المقامات؛ لأنه جامع لمكارم الصفات والحالات، ولذا قُدم على الصلاة في قوله -تعالى-: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]. «مرقاة المفاتيح».

والصبر أنواع ثلاثة: صبر على الطاعة حتى يؤديها، وصبر على المعصية حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار المؤلمة، فهو يشمل الدين كله، لذا قال الله -تعالى-: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]، وقال -تعالى-: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة]، قال عمر ﵁: «نِعم العِدلان، ونعمت العلاوة»، وأراد بالعدلين: الصلوات والرحمة، والعدلان: ما يوضع على جانبي سنام البعير، وأراد بالعلاوة: الهداية، والعلاوة: هي الحمولة الزائدة التي توضع فوق سنام البعير.

٤ – من فوائد الابتلاء كذلك: تمحيص الذنوب، كما قال النبي ﷺ: «**لا يزال البلاء في العبد المؤمن؛ في نفسه، وماله، وأهله، حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة**»[١]، وقال علي ﵁: «لولا مصائب الدنيا، لوردنا الآخرة من المفاليس».

٥ – من فوائد الابتلاء كذلك: رحمة أهل البلاء، ومساعدتهم على بلواهم، فلو ابتلي العبد بالفقر مثلًا يرحم الفقراء، ويستشعر معاناتهم، وإذا ابتلي بالمرض أو السجن - نسأل الله العافية - رحم المرضى والمساجين.

٦ – من فوائد الابتلاء كذلك: معرفة أقدار النعم، فمهما كان العبد سليمًا صحيحًا لا يستشعر نعمة الصحة والعافية، ولكن الله ﷻ إذا ابتلاه بشيء من ذلك عرف قدر النعمة، وكذا لا يعرف قدر نعمة الحرية إلا من ابتلي بالسجن، نسأل الله العافية لنا ولإخواننا المسجونين في كل مكان.

٧ – من فوائد الابتلاء كذلك: ما يكون مع البلاء من فوائد خفية، ومنح مطوية، قال الله ﷻ: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٩٩)، وأحمد (٧٨٥٩، ٩٨١١/ شاكر)، وابن حبان (٢٩٢٤)، والحاكم (٧٨٧٩)، من حديث أبي هريرة ﵁، وصححه الألباني ﵀ في «صحيح الجامع» (٥٨١٥)، و«الصحيحة» (٢٢٨٠).

﴿يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقالوا: «لا تكرهوا البلايا الواقعة، والنقمات الحادثة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تؤثره فيه عطبك»، وقالوا: «عواقب الأمور تتشابه في الغيوب، فرب محبوب في مكروه، ورب مكروه في محبوب»، وقال بعضهم: «لا أبالي أصبحت على ما أحب، أو على ما أكره؛ لأنني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره».

وقال -تعالى-: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح]، **ويفسر ذلك قوله ﷻ:** ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، **قالوا:** «إن اليسر يكون بعد العسر مباشرة» فكأنه معه، وفي قوله -تعالى-: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ لطيفة ذكرها العلماء، وهي: أن المعرفة إذا كررت لا تفيد إضافة، والنكرة إذا كررت أفادت إضافة، فكأنه ﷻ قال: مع كل عسر يسران، وقالوا: ﴿يُسْرًا﴾ نكرة للتعظيم، أي: مع كل عسر يسران عظيمان، قال بعض السلف: «لو دخل العسر جحرًا لدخل اليسر وراءه، قال الله -تعالى-: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾».

٨ - من فوائد الابتلاء كذلك: أنه يمنع من الفخر والخيلاء؛ فلو كان النمرود فقيرًا سقيمًا، فاقد السمع والبصر، ما حاج إبراهيم في ربه، ولكن حمله على ذلك بطر الملك، ولو كان فرعون كذلك ما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

٩ - من فوائد الابتلاء كذلك: أن العبد إذا رضي بما ابتلاه الله ﷻ به نال رضى الله، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط.

والرضا أكبر من الجنة، كما قال -تعالى-: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

١٠ – من فوائد الابتلاء كذلك: معرفة العدو من الصديق.

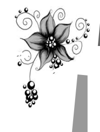
قال بعضهم:

جـزى اللهُ الـشدائد كـل خـير عرفـتُ بهـا عـدوي مـن صـديقي

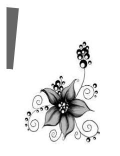
نـسأل الله –تعـالى– العافيـة، فـإن سـاحة العافيـة هـي أوسـع الـساعات قبـل نـزول الـبلاء، فـإذا نـزل الـبلاء، صـارت سـاحة الـصبر أوسـع الـساحات، قـال النبـي ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»[(١)].



(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٦٦، ٧٢٣٧)، ومسلم (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٣١)، وغيرهم من حديث عبد الله بن أبي أوس رضي الله عنه، وقوله: «**واسألوا الله العافية**» قد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية، وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات، في البدن والباطن، في الدين والدنيا والآخرة.



٤ – الأسباب الجالبة للمحبة (*)



محبة الله ﷻ هي الغاية من العبادات، وكمال العبودية في كمال الحبِّ وتمام الذل لله ﷻ، وقد ذكر العلماء للوصول إلى هذه الغاية أسبابًا، **فمن ذلك:**

١ – قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، قال –تعالى–: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال –تعالى–: ﴿**وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٤]، وكلما ازداد الإيمان ازداد الحب، وازداد التوكل، وازدادت الخشية، وكلما قرأ العبد القرآن ازداد إيمانه بأنه تنزيل الله ﷻ، وقصصه، ووعده ووعيده، فيزداد حبًّا لله ﷻ.

٢ – ومن ذلك التقرب إلى الله ﷻ بكثرة النوافل بعد استكمال الفرائض؛ لقوله ﷻ في الحديث القدسي: «**وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبُّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**» (١)، فبداية طريق المحبة في استكمال الفرائض أولًا، فأفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرَّم الله، وحسن النية فيما عند الله ﷻ، وبعد أن يستكمل العبد الفرائض، يفتح على نفسه أبواب النوافل، وهي كثيرة متنوعة، لاختلاف استعدادات الناس وقوابلهم، والنوافل: ما عدا الفرائض من

(*) منزلة المحبة: قالوا: وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تَرَوَّحَ العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات. «المدارج».

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، وابن حبان (٣٤٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٦٣٩٥)، و«شرح السنة» للبغوي (١٢٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقوله: «**وما تقرب إلي عبدي**» أي: المؤمن، وآثَرَهُ؛ لأنَّ من شأن العبد التقرب إلى سيده، بأنواع خدمته، وأصناف طاعته.

أجناس الطاعات، قال العلماء: فما بال النوافل كانت السبب إلى محبة الله ﷻ دون الاقتصار على الفرائض؟ وأجاب بعضهم: بأن العبد يفعل الفريضة مخافة العقوبة ورجاء الأجر، أما النوافل فيفعلها بإخلاص نية التقرب والتحبب إلى الله ﷻ، فلما خلصت النية في النوافل كانت هي السبب الموصل إلى محبة الله ﷻ دون الفرائض.

٣ – كثرة ذكر الله ﷻ؛ فالذكر هو قوت القلوب، وهو الباب المفتوح بين العبد وربه، ما لم يغلقه العبد بغفلته، قال الحسن البصري: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وفي تلاوة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق»، وفي كل جارحة من الجوارح عبادة مؤقتة، والذكر هو عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة، بل أمروا بذكر معبودهم ومحبوبهم، قيامًا، وقعودًا، وعلى جنوبهم، قالوا: المحب طائر القلب، كثير الذكر، متسبب إلى الله ﷻ بكل سبيل يقدر عليه من الوسائل والنوافل دَأْبًا وشوقًا، وقالوا: «المحب لا يجد للدنيا لذة، ولا يفتر لسانه عن ذكر الله ﷻ».

٤ – إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، أي: تقديم محابِّ الله ﷻ على ما يحبه العبد، فإذا كان العبد في طريق، وأمامه نساء متبرجات، فنفسه وهواه يدعوه إلى النظر بمقتضى الهوى والشهوة، والله ﷻ يأمره بغض البصر: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، فإذا قدم العبد ما يحبه الرب ﷻ على مراد نفسه وهواه، فإن هذا مما يزداد به العبد حبًا لله ﷻ، والله ﷻ يرزقه حلاوة إيمان عوضًا عن الشهوة المحرمة، وكذا إذا كان في مجلس يخوض الناس فيه في الأعراض، إما أن يوافقهم حتى لا يستثقلوه، أو يقول لهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وأضعف الإيمان أن يترك هذا المجلس، حتى لا يكون شريكًا لهم، وهكذا كلما قدم العبد محابَّ الله على محابِّه، يزداد حبه لله ﷻ.

٥ – مطالعة القلب لأسماء الله ﷻ وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، فمهما تعرف العبد على ربه الجليل ﷻ ازداد حبًّا له، قال النبي ﷺ: «**أنا أعلمهم بالله وأشدهم له**

خشية»[1] فكلما ازداد العلم تزداد الخشية، وتزداد المحبة، ويزداد التوكل والرجاء، وغير ذلك، قيل للإمام الشعبي: يا عالم، فقال: «إنما العالم من يخشى الله»، وكان ابن مسعود يقول: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى باغترار بالله ﷻ جهلًا»، والله ﷻ خلق الخلق من أجل أن يعرفوه ﷻ، كما قال ابن عباس في قوله -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال: «إلا ليعرفون»، وهذه المعرفة بربوبية الله ﷻ وأسمائه وصفاته تستلزم منهم إفراد الله ﷻ بالعبادة.

٦ - مشاهدة بره وإحسانه، ونعمه الظاهرة والباطنة، قال -تعالى-: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فكل النعم مصدرها واحد، كلها من الله ﷻ، وقال -تعالى-: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النمل: ١٨]، فالعباد عاجزون عن إحصاء نعم الله ﷻ عليهم، فضلًا عن أداء شكر هذه النعم، لذا قال بعضهم: «حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، ونعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين»، والقلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، فكلما تدبر العبد نعم الله ﷻ عليه، يزداد حبه لله ﷻ.

٧- انكسار القلب بكليته بين يدي الله ﷻ، قال ابن القيم رحمه الله: «وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات»، وكأنه يشير رحمه الله إلى أن ذلك يستشعره العبد بقلبه، من الافتقار إلى الله ﷻ، والاضطرار إليه، وأن الأسماء والعبارات لا تكفي في تصوير ذلك، وإن كنا لا نملك إلا الأسماء والعبارات، فنسأل الله -تعالى- أن يجعلنا أفقر خلقه إليه، وأغنى خلقه به.

٨- الخلوة به في وقت النزول الإلهي: فإذا كان ثلث الليل الآخر ينزل ربنا ﷻ إلى سماء الدنيا، فيقول: «**لا أسأل عن عبادي غيري**»، وفي رواية يقول: «**أنا الملك، أنا الملك**»، وفي رواية يقول: «**من يقرض غير عديم ولا ظلوم**»[2]. ويقول: «**هل من تائب؟ هل من**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦)، وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) حديث صحيح: ورد عن جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجبير بن مطعم، ورفاعة بن =

سائل؟ هل من مستغفر؟»، فالموفق من يقوم في هذا الوقت يدعو ربه ﷻ، ويتوب إليه، والملوك لا يسمحون بالدخول عليهم، والخلوة بهم إلا أهل الإخلاص في معاملتهم، فليس كل أحد يدخل على الملك، ولكن هذا وقت الإذن العام، فنسأل الله -تعالى- أن يوفقنا للقيام في هذا الوقت الشريف للصلاة، والدعاء، والاستغفار.

٩- مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك أو منفعة لغيرك، قال بعضهم: «مجالسة أهل الصلاح تَسْكُبُ في القلب»، وقالوا: «ليس شيء أنفع للعبد من مجالسة الصالحين، والنظر إلى أفعالهم، وليس شيء أَضَرَّ على العبد من مجالسة الفاسقين، والنظر إلى أفعالهم»، ومن أراد أن يحب أحدًا جالس أحبابه، فيذكرون من صفاته وأفعاله ما يدعو قلبه إلى محبته.

وأُضيفُ إلى هذا السبب عزلة أهل الشر والفساد؛ فاعتزال العامة مروءة تامة، قال ﷻ عن خليله إبراهيم: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٩]، وقالوا: «الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس»، والعبد إذا كان فاضلًا في نفسه أحبَّ الخلوة، وإذا خلا أنس بالله ﷻ، واستغنى بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخدمته عن خدمة من سواه.

=عرابة الجهني، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهم أجمعين-، «إرواء الغليل» (٤٥٠).
والحديث عند: مسلم (٧٥٨)، والترمذي (٤٤٦)، وأحمد (٧٥٠٩، ٧٧٩٢/ الرسالة)، والدارمي (١٥١٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «**أنا الملك، أنا الملك...**».
ورواية: «**من يقرض غير عديم ولا مظلوم**» عند مسلم (٧٥٨)، وأبو عوانة (٣٧٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٤٦٥٣)، وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وقوله: «**غير عديم ولا ظلوم**» قال أهل اللغة: أعدم الرجل إذا افتقر، فهو معدوم وعديمٌ، والمراد بالقرض -والله أعلم-: عمل الطاعة، سواءٌ فيه الصدقة، والصلاة، والصوم، وسمّاهُ ﷻ قرضًا ملاطفة للعباد، وتحريضًا لهم على المبادرة إلى الطاعة. «شرح النووي على صحيح مسلم».
ورواية «**لا أسأل عن عبادي أحدًا غيري**» عند أحمد (١٦٢١٥/ الرسالة)، والدارمي (١٥٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٣٦)، وابن حبان (٢١٢)، من حديث رفاعة بن عرابة الجهني رضي الله عنه. والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٠٥) وشعيب الأرنؤوط عند ابن حبان، وقال: «صحيح على شرط البخاري».

مثل: طوبى لمن استوحش من الناس، وكان الله أنيسه.

وقيل لبعضهم: ألا تستوحش وحدك؟ فقال: كيف ذلك وهو يقول: «أنا جليس من ذكرني».

١٠- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ؛ فكل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ فهو شؤم على صاحبه، فمن وجد ربه ﷻ فقد وجد كل شيء، ومن فاته ربه ﷻ فقد فاته كل شيء، فينبغي على العبد أن يضحي بكل ما يحول بينه وبين الله ﷻ، من منصبٍ، أو شهرة، أو شهوة، أو صديق، وأنا أحذر بهذه المناسبة من الشبكة العنكبوتية، وكذا القنوات الفضائية التي تبث الإباحية، فينبغي على الشاب إذا استشعر خطرها أن يغلق هذه الأبواب، فدرء المفاسد أولى من جلب المصالح، فإذا كان يشاهد مقاطع إسلامية في الشبكة، ولكنه كذلك يرى صورًا عارية، فالمقاطع الإسلامية يمكن أن يستمع إليها في أماكن أخرى، بعيدًا عن الشبكة العنكبوتية، قال -تعالى-: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، قال العلماء: «أمام شهوته»، ولذا جعل الشرع بين العبد وبين المعصية أبوابًا كثيرة مغلقة، فحرم النظر إلى الأجنبية، ومصافحتها، والخلوة بها، والسفر معها، والدخول على المغيبات، حتى يكون المسلم بعيدًا عن المعصية، نسأل الله -تعالى- العافية في الدنيا والآخرة، فالشبكة العنكبوتية والقنوات الفضائية غير الإسلامية مثلها كمثل الخمر والميسر ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، قال الشيخ صالح المنجد - حفظه الله -: بأن ثمانين بالمائة من الشبكة ليس فيه خير، نسأل الله -تعالى- أن يغنينا بحلاله عن حرامه، وبفضله عمن سواه[1].

---

(١) ومما جاء في هذا الأمر في أحد القنوات العربية في بيان صادر عن هذه الشبكة:

١ - عدد المواقع الإباحية حوالي (٤ مليون)، وحوالي (٢٠٠ ألف صفحة)، وحوالي (١٠٠ ألف) موقع منها عن الأطفال.

٢ - وقالت: أن عدد مرات البحث عن هذه المواقع يبلغ (٦٨) مليون طلب.

وأن الدول التي تحتل المراتب المتقدمة من الدول العربية (مصر، السعودية، البحرين، الكويت، قطر)... والله المستعان.

قلْتُ: وأيضًا فإنها تشجع على: «عدم التثبت، والسب، والشتم، والتفسيق، والإيذاء، وسوء الظن، والاحتقار، والشماتة- وحدث عنها ولا حرج- والكذب بأنواعه، والظلم بأشكاله، والأخطر هو إظهار عورات المسلمين، والفتاوى المعلبة...».



٥- الوظيفة والغاية

ما هي الوظيفة التي خُلقنا من أجلها؟ وما هي الغاية التي ينبغي علينا أن نصل إليها؟ لا شك في أن هذين السؤالين من الأهمية بمكان، يجب على العاقل أن يعرف إجابتها؛ لأن ذلك يترتب عليه نجاة العبد في الآخرة، وفوزه بالجنة ونجاته من النار، قال الله -تعالى-: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

فمن يعرف الوظيفة التي خُلق من أجلها، والغاية التي يجب عليه أن يسعى إليها، يسير سويًا على صراط مستقيم، وكما يقولون الخط المستقيم هو أقرب الطريق بين نقطتين، أما من لم يعرف وظيفته أو غايته، فكلما خطا خطوة إنكفأ على وجهه؛ لأنه لا يعرف هدفًا ولا وظيفة، ولأهمية هذين السؤالين أتت الإجابة عليهما واضحة صريحة في كتاب الله ﷻ، بل أول أمر في القرآن بيّن الله ﷻ فيه الوظيفة والغاية، قال -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. فالوظيفة هي العبودية لله ﷻ، والغاية هي الوصول إلى تقوى الله ﷻ، وقال ﷻ كذلك مبينًا الوظيفة والغاية في سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وبينت بعض الآيات الوظيفة وحدها، فقال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالله ﷻ خلقنا لوظيفة محددة، وهي عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، ومن أجل هذه الوظيفة كذلك أرسل الله ﷻ الرسل، وأنزل الكتب، قال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال -تعالى-: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

فالرسل والدعاة بدعوة الرسل يحررون الناس من عبادة غير الله ﷻ، ويشرفوهم بأن يجعلوهم عبيدًا لله ﷻ، وقد فهم ربعى بن عامر رضي الله عنه هذه الوظيفة، لما دخل على رستم، فقال رستم: ما الذي جاء بكم؟ قال: «إن الله ابتعثنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

والعبادة لله ﷻ شرف في الدنيا والآخرة، كما قال القاضي عياض:

وممـا زادنـي شـرفًا وتيهًـا ... وكـدتُ بأخمـصي أَطـأُ الثرَّيـا

دخـولي تحـت قولـك يـا عبـادي ... وأن صـيَّرت أحمـد لـي نبيًّـا

وكلما كملت عبودية المسلم لله ﷻ، تحرر من عبودية من سواه، وكلما كملت عبوديته كملت سعادته، وكلما نقصت عبوديته نقصت سعادته، فكما أن السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة غير الله ﷻ لفسدتا، فكذلك قلوب العباد لو كان فيها غير الله ﷻ لفسدت بذلك فسادًا لا يرجى له صلاح، حتى تعرف ربها ﷻ، وتعبده بأمره ونهيه، والقلوب خلقت لمعرفة علام الغيوب وغفار الذنوب ﷻ، وإذا خلا القلب من حب الله ﷻ فهو كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء، والجسد الميت.

ولما كانت حياة القلوب وسعادتها في عبوديتها لله ﷻ كان علاجها كذلك إذا أصابها شيءٌ من الهم والغم والحزن في تجديد التوحيد، والتسليم للشرع المجيد، قال النبي ﷺ: «**ما أصاب عبدًا قط هم ولا غم ولا حزن فقال: اللَّهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرحًا**»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣٧١٢، ٤٣١٨)، والبزار (١٩٩٤)، وابن حبان (٢٣٧٢)، وغيرهم من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩)، وتخريج «الكلم» (١٢).

وقد استشعر العلماء والعباد والزهاد هذه السعادة لما كملت عبوديتهم لله ﷻ، فقال بعضهم: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك، ما نحن فيه من نعمة، لجالدونا عليها بالسيوف»، وقال بعضهم: «أهل الليل في ليلهم، ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا»، وقال بعضهم: «ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، وصلاة الجماعة»، وقال بعضهم: «والله إنه لتمر بي أوقات، يرقص فيها القلب طربًا»، وقال بعضهم: «والله إنه لتمر بي أوقات، أقول: إن كان أهل الجنة كما نحن فيه، والله إنهم لفي عيش طيبة»، وقال بعضهم: «أنا منذ أربعين سنة ما أزعجني إلا طلوع الفجر»، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لن يدخل جنَّة الآخرة»، وكان يقول: «ما يفعل بي أعدائي، أنا جنتي معي، بستاني في صدري، إن سجني خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وتعذيبي جهاد في سبيل الله»، ولما دخل القلعة نظر إلى سورها العالي، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

أما الغاية التي يجب على كل مسلم أن يسعى إليها فهي الوصول إلى تقوى الله ﷻ، وإنما قلت ذلك؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فلما كانت التقوى موصلة إلى الفلاح، كانت هي الغاية، ولأن الله ﷻ بيَّن الحكمة من كثير من العبادات، وأن المراد بها الوصول إلى تقوى الله ﷻ، قال -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال -تعالى-: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وبيَّن ﷻ في كتابه أن الجوائز في الآخرة كلها للمتقين، فقال ﷻ: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، وقال ﷻ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]، وقال

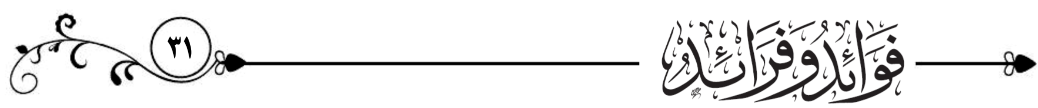
-تعالى-: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وقال ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال ﷻ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، أي: جماعات جماعات، وقال ﷻ على سبيل الإجمال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]. ثم فصَّل فقال: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ]، وقال ﷻ أيضًا على سبيل الإجمال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩]، أي: مرجع، ثم فصل فقال: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص]، وأخبر عن قربهم من الحضرة، واللقاء والرؤية والبهاء، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر].

بقى أن نعرف أن التقوى هي استشعار قرب الله ﷻ منك، كما قال بعضهم: «التقوى هي علم القلب بقرب الرب»، فكلما اجتهد العبد في طاعة الله ﷻ استشعر هذا القرب، كما قال -تعالى-: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، وقال النبي ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(١)، فاستشعار هذا القرب هو تقوى الله ﷻ، ليس من كان في قصر الملك، على بساط الملك، ينظر إلى الملك، والملك ينظر إليه، كمن كان خارج القصر، أو خارج مدينة الملك، أو لا يستشعر وجود الملك بالكلية.

بقي أن نعرف أيضًا أن الوظيفة توصل إلى الغاية، فالطاعة والعبودية لله ﷻ توصيل إلى تقوى الله ﷻ، كما يقولون: «الطاعة تولد القرب، والقرب يورث الأنس، والمعصية تولد البعد، والبعد يورث الوحشة»، فإذا اجتهد العبد في الطاعة، أنس بالله ﷻ لقربه، وسعد بالله ﷻ، واستغنى بالله ﷻ، وإذا عصى الله ﷻ استشعر الوحشة؛ لأن الله ﷻ يبعده بقدر معصيته، فتحصل الوحشة بينه وبين الله ﷻ، وبينه وبين عباد الله المؤمنين.

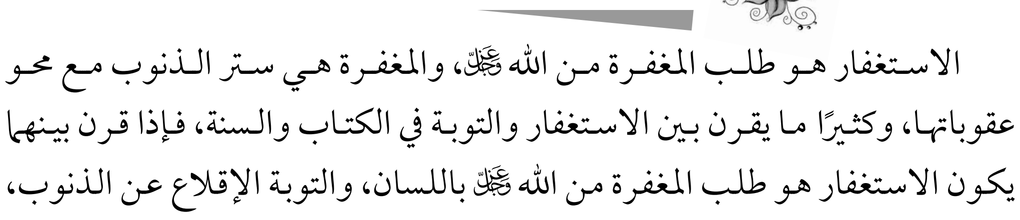
---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٢)، وأبو داود (٨٧٥)، والنسائي (١١٣٧)، وأحمد في «مسنده» (٩٤١٥)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.





٦- فوائد الاستغفار



الاستغفار هو طلب المغفرة من الله ﷻ، والمغفرة هي ستر الذنوب مع محو عقوباتها، وكثيرًا ما يقرن بين الاستغفار والتوبة في الكتاب والسنة، فإذا قرن بينهما يكون الاستغفار هو طلب المغفرة من الله ﷻ باللسان، والتوبة الإقلاع عن الذنوب، والندم على فعلها.

وحكم الاستغفار هو حكم الدعاء، فالأصل فيه الإجابة، بشرط مراعاة آداب الاستغفار، من انكسار القلب، والإقبال على الله ﷻ، والثقة بالقبول، فكما وعد الله ﷻ بقبول الدعاء، وعد كذلك بقبول الاستغفار، فقال -تعالى-: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]. وقد كان النبي ﷺ يكثر من الاستغفار، ويأمر بالاستكثار منه، قال النبي ﷺ: «**توبوا إلى الله واستغفروه، فوالله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[(١)]، وقال ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[(٢)]. وأفضل الاستغفار ما تضمن اعتراف العبد بذنوبه، واعترافه كذلك بنعم الله ﷻ عليه، عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللّٰهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عَلَيّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[(٣)]، فقوله: «**أبوء لك بنعمتك عَلَيّ**»

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٧)، والترمذي (٣٢٥٩)، وأحمد (٧٧٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٩٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠٢)، وأبو داود (١٥١٠)، وأحمد (١٧٧٤، ١٨٢٠٤/ الرسالة)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٠٣)، وابن حبان (٩٣١) والحاكم (١٨٨٢)، من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

وقوله: «**ليغان**» المراد هنا: ما يتغشى القلب، قال القاضي: «قيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي شأنه الدوام عليه فإذا فتر عنه أو غفل عد ذلك ذنبًا واستغفر منه». «شرح النووي على صحيح مسلم».

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٦)، والترمذي (٣٣٩٣)، والنسائي (٥٥٢٢)، وأحمد في «مسنده» (١٧٠٦٦، ١٧٤٠٧)، والنسائي في «الكبرى» (٧٩٦٣)، وغيرهم من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

أي: أعترف بنعمتَك عليّ، وقوله: «**وأبوء بذنبي**» أي: أعترف بذنبي، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «**قل: اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**»[١].

وقد بينت السنة أهم الأسباب التي توصل إلى المغفرة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قال الله –تعالى-: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني، ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، لغفرت لك، يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة**»[٢].

فتضمن هذا الحديث القدسي الشريف ثلاثة أسباب من أسباب المغفرة:

۞ **السبب الأول: الدعاء مع الرجاء**، فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنبًا لم يرج مغفرته من غير ربه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب ويأخذ بها غيره، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللَّهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»[٣] فذنوب العباد وإن عظمت، فإن عفو الله ومغفرته أعظم منها.

قال الإمام الشافعي:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سُلَّما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

۞ **السبب الثاني: الاستغفار**، فلو بلغت الذنوب عنان السماء، أي: ماعن منها، أي: ظهر، ثم استغفر الله عز وجل، يغفر الله عز وجل له، يروى أن لقمان قال لابنه: «يا بني عَوِّد

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥)، والترمذي (٣٥٣١)، والنسائي (١٣٠٢)، وابن ماجه (٣٨٣٥)، وأحمد (٨، ٢٨ الرسالة)، عن ابن عمرو عن أبي بكر رضي الله عنهم.

(٢) صحيح: سبق الكلام عليه. راجع «صحيح الجامع» (٤٣٣٨)، و«المشكاة» (٢٣٣٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٧٩).

لسانك: اللّهم اغفر لي؛ فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلًا»، وقال الحسن البصري: «أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم؛ فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة»، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**فطوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا**»، وعن علي رضي الله عنه قال: «ما ألهم اللهُ عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه»، وقال قتادة: «إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار».

۞ **السبب الثالث: وهو التوحيد**، ومن حرم منه حرم من المغفرة، كما قال الله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، قال ابن القيم رحمه الله: «يعفى لأهل التوحيد المحض، الذي لم يشوبه بالشرك، ما لا يعفى لمن ليس كذلك، فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله البتة ربه بقراب الأرض خطايا، أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده»، ويدل على ذلك أيضًا حديث البطاقة وقد بينا ذلك في فوائد التوحيد.

فوائد الاستغفار:

١- الاستغفار استجابة لأمر الله عز وجل: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾ [المزمل: ٢٠]، واستجابة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم: «**توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله واستغفره في اليوم سبعين مرة**»[1]. وليس شيء أنفع للعبد في العاجل والآجل من امتثال أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم.

٢- ومن فوائده حصول المطلوب بالاستغفار من مغفرة الله عز وجل للعبد، والمغفرة كما أشرت آنفًا هي: ستر الذنوب مع محو عقوباتها، وقد وعد الله عز وجل بالمغفرة لمن استغفره، فقال -تعالى-: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء: ١١٠]. فما أيسر العمل، وهو طلب المغفرة من الله عز وجل، وما أعظم الثمرة، وهي مغفرة الذنوب.

---

(١) سبق تخريجه.

٣- موافقة الملائكة من حملة العرش ومن حوله في الاستغفار للمؤمنين، كما قال -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ..﴾ [غافر: ٧]، قال العلماء: درء المفاسد أولى من جلب المصالح، اختارت الملائكة ما هو أنفع للمؤمنين؛ وهو الاستغفار لهم، وقالت الملائكة كذلك: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٩].

٤- الاستغفار تحقيق لتوحيد الأسماء والصفات، فلولا أن العبد يعلم أن من أسمائه ﷻ: الغفار والغفور، وأنه ﷻ وصف نفسه كذلك بأنه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، وأنه ﴿وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾، وأنه ﴿خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾، لما اجتهد في طلب المغفرة من الله ﷻ على كثرة ذنوبه وخطاياه، قال الإمام الخطابي: «الغفار هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى، كلما تكررت التوبة من الذنب تكررت المغفرة، فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته، ومعنى الستر هذا أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه، ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم»(١).

وخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر في النجوى، قال له رجل: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «**يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون، فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على الله**»(٢).

---

(١) «شأن الدعاء» (٥٣، ٥٤)، نقلًا عن «فقه الاستغفار» للشيخ/ محمد إسماعيل.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨)، وابن ماجه (١٨٣)، وأحمد (٥٤٣٦، ٥٨٢٥/ الرسالة)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٧٨)، وأبو يعلى (٥٧٥١)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وقوله: «**كنفه**» الرحمة، والعطف، وكف أذى الناس عَنْهُ. حاشية «صحيح الجامع».

٦- الاستغفار وقاية من عذاب الله ﷻ، قال -تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فقام رسول الله ﷺ، فلم يكد يركع، ثم ركع، فلم يكد يرفع، ثم رفع، فلم يكد يسجد ثم سجد، فلم يكد يرفع، ثم رفع، فلم يكد يسجد، ثم سجد، فلم يكد يرفع، ثم رفع، وفعل في الركعة الأخرى مثل ذلك، ثم نفخ في آخر سجوده، ثم قال: «**رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم؟ رب ألم تعدني ألا تعذبهم وهم يستغفرون؟ ونحن نستغفرك**» ففرغ رسول الله ﷺ من صلاته، وقد أمحصت الشمس[(١)]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان في هذه الأمة أمانان: رسول الله ﷺ والاستغفار، فذهب أمان -يعني: رسول الله ﷺ- وبقي أمان- يعني: الاستغفار-»[(٢)]، والظاهر أن الاستغفار أمان من العذاب في الدنيا والآخرة، قال النبي ﷺ: «**يا معشر النساء، تصدقن، وأكثرن من الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار**»[(٣)].

٧- الاستغفار علاج للقحط والعقم والفقر، قال -تعالى- حاكيًا عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح]، يروى عن الحسن البصري أن رجلًا شكا له الجدب، فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر عدم الولد، فقال: استغفر الله، ثم تلا عليهم هذه الآية، وقد استدل الفقهاء بهذا النص

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١١٩٤)، وابن خزيمة (١٣٩٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٣٦٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني رحمه الله في «مختصر الشمائل» (٢٧٨)، و«الإرواء» (٣٩٦) و«صحيح أبي داود الأم» (١٠٧٩)، وورد بأكثر من رواية في السنن وغيره، وقوله: «أمحصت» أي: ظهرت من الكسوف.

(٢) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٩٠٣٧)، وفي «الشعب» (١٤١١)، قلت: والحديث جاء من كذا طريق، عند أحمد، و«الدعاء» للطبراني، وعند الحاكم وغيرهم، مما يعطي أن للحديث أصل في ذلك.

(٣) صحيح: أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٧٩)، و«السنة» لابن أبي عاصم (٩٥٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٠٥٢٩)، وفي «الشعب» (٢٩)، و«الإيمان» لابن منده (٦٧٠، ٦٧٣)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

القرآني الكريم على مشروعية صلاة الاستسقاء، واستحبوا أن يكثر الإمام من الاستغفار، ومن تلاوة قوله -تعالى-: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، قال الشعبي: «خرج عمر يستسقي، فلم يزد على الاستغفار، فقالوا: ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ الآيات [نوح: ١٠-١٢] و﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]».

٨- الاستغفار سبب للقوة والرزق وزوال الهم، قال الله ﷻ حاكيًا عن هود عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»**[١].

٩- الاستغفار فيه علاج لفقر العبد وحاجته واضطراره إلى الله ﷻ، كما ورد في صحيح مسلم، من حديث أبي ذر: **«يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم»**[٢].

قال شيخ الإسلام: «فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطر إليه دائمًا في الأقوال والأحوال، وفي الغوائب والمشاهد، لما فيه من المصالح وجلب الخيرات ودفع المضرات، وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية، اليقينية الإيمانية»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩)، وأحمد (٢٢٣٤/ الرسالة)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢١٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٦٤٢١)، والحاكم (٧٦٧٧)، وقال الذهبي: «الحكم بن مصعب فيه جهالة»، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٩٦)، وقال: «هذا حديث يرويه الحكم بن مصعب بهذا الإسناد، وهو ضعيف»، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وضعفه الألباني رحمه الله في «الضعيفة» (٧٠٥)، و«ضعيف الجامع» (٥٤٧١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧)، وأحمد (٢١٣١٤/ الرسالة)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٩٦).



٧- فوائد الجهاد

الجهاد لغةً: هو بذل الجهد، **وشرعًا:** هو بذل الجهد في مقاتلة الكافرين والبغاة، وهو ذروة سنام الإسلام كما أخبر النبي ﷺ[1]، وهو كذلك أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله ﷻ، كما قال النبي ﷺ أيضًا، قيل له: أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**».

والجهاد نوعان: النوع الأول: هو تطلب الكفار في عقر دارهم ودعوتهم إلى الإسلام، والجمهور على أن هذا النوع من الجهاد فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط الحرج عن الباقين، ومن أدلتهم قوله -تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ويتعين هذا الجهاد في ظروف منها:

١- إذا عين الإمام شخصًا بعينه للجهاد.

٢- إذا كان النفير عامًا، كأن يستنفر الإمام أهل قرية أو ناحية.

٣- إذا كان للمسلمين أسرى عند الكفار، حتى يستنقذوا من أيديهم.

٤- إذا حضر المسلم جيش المسلمين في حال قتال مع الأعداء.

والنوع الثاني من أنواع الجهاد: جهاد الدفع، وحكمه فرض عين على المسلمين عمومًا، حتى يندفع شر الأعداء، وهذا بإجماع علماء الإسلام.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢١٩١٥ الرسالة)، والحاكم (٣٥٩٩)، وغيرهم من حديث معاذ بن جبل، وفيه: «**ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟ رأس الأمر: الإسلامُ، فمن أسلم سلم، وعمودُهُ: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد...**» صحيح وصححه الألباني ؒ في «الإرواء» (٤١٣)، و«صحيح الجامع» (٥١٣٦)، و«صحيح الترغيب» (٢٨٦٦)، وقوله: «**ذروة سنامه**» أعلى الشيء، والسنام بالفتح ما ارتفع من ظهر الجمل. «مرقاة».

وقد فرض الله ﷻ علينا الجهاد، كما فرض الصيام وسائر العبادات الواجبة، فقال -تعالى-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، مع أن الجهاد فيه تعريض النفس للتلف أو للجراحة العظيمة، ولكن لكثرة فوائده وخطرها فرضه الله ﷻ.

١- فمن هذه الفوائد: تعبيد الناس لله ﷻ، وإخراجهم من عبادة غير الله ﷻ، قال -تعالى-: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال النبي ﷺ: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يعبد الله -تعالى- وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري**»[(١)].

٢- ومن هذه الفوائد: أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، قال النبي ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[(٢)]، فهذه أعظم فائدة للجهاد؛ أن ترتفع راية الله ﷻ، ويعز دين الله، ويتحاكم الناس إلى شريعته، وأن تنكس رايات الكفر، وتضمحل معالمه.

قال العلياني: «وهذا الهدف السامي المتضمن لإعلاء كلمة الله، وهي الإسلام، وإقامة سلطان الله في الأرض، وجعل كلمة الذين كفروا السُّفلى، وإخلاء العالم من الفساد الأكبر، الذي هو الشرك، وما ينتج عنه، وإزالة الطواغيت الذين يحولون بين الناس وبين الإسلام، ويُعَبِّدُونهم لغير الله»[(٣)].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥١١٤، ٥٦٦٧/ شاكر)، والبيهقي في «الكبرى» (١٨٣٩٧)، والطبراني (١٤١٠٩)، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٣١)، و«الإرواء» (١٢٦٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٥١٤)، والترمذي (١٦٤٦)، والنسائي (٣١٣٦)، وابن ماجه (٢٧٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قال النووي: «فيه بيانُ أن الأعمال إنما تحسبُ بالنيات الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله -تعالى- يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا». «شرح النووي على صحيح مسلم».

وقوله: «**كلمة الله**» أي: كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله... «مرقاة المفاتيح»، وقيل: أي كلمة توحيده، وهي الدعوة إلى الإسلام. «فيض القدير».

(٣) «أهمية الجهاد» (١٦٩).

٣- ومن فوائده: رد اعتداء الكافرين عن بلاد المسلمين، كما قال -تعالى-: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال -تعالى-: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، ولا شك في أن المراد بذلك جهاد الدفع، وهو فرض عين على أهل البلد المعتدى عليه من بلاد المسلمين، فإن لم تكن له طاقة لدفع الاعتداء فعلى من يليهم حتى تحصل الكفاية.

قال القرطبي: «ولو قارب العدو دار الإسلام، ولم يدخلوها، لزمهم أيضًا الخروج إليه حتى يظهر دين الله، وتحمى البيضة، وتحفظ الحوزة، ويخزى العدو، ولا خلاف في ذلك»[1].

٤- ومن فوائده: إضعاف شوكة الكافرين بقتلهم، قال -تعالى-: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤]، وقال -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وليس معنى ذلك قتل كل كافر سواء كان معاهدًا أو في قتله مفاسد راجحة، بل بالضوابط الشرعية، فقد يكون في قتل كافر تنفير من الإسلام، خاصة إذا قتل بالحرق، أو بغير ذلك من الطرق البشعة التي يستعملها من ينتسب إلى الفكر التكفيري، ولابد من دراسة سيرة النبي ﷺ، وسير الخلفاء الراشدين، فمجرد الكفر ليس كافيًا في قتله، فقد أسر ثمامة بن أثال شاعر بني حنيفة، وكان يهجو المسلمين، فلم يبادر النبي ﷺ بقتله، بل ربطه في المسجد حتى يرى أصحابه وهم يصلون، وحتى يرغب في الإسلام، وكان يمر عليه ويقول: «**ما عندك يا ثمامة؟**»، فيقول: عندي خير -في القصة المعروفة-،

---

(١) «تفسير القرطبي» (٨/ ١٥١) ط. الشعب.

فقال ﷺ: «**أطلقوا ثمامة**»، فبادر بالإسلام[(١)]، ولما قيل للنبي ﷺ: أقتل ابن أُبيَّ المنافق، قال: «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[(٢)]، لأنه في الظاهر منسوب إلى المسلمين، وإن كان منافقًا كافرًا في الباطن، فالحفاظ على الرأي العام، وصورة المسلمين لابد من مراعاتها، وقتل الكفار بالطرق البشعة وخاصة وهم ليسوا محاربين يترتب عليه مفاسد كثيرة والله أعلم، وقد قال النبي ﷺ «**إذا قتلتم فأحسنوا القتلة**»، فهذا يدل على أن هؤلاء المتطرفين في وادٍ، وهدي النبي ﷺ المبارك في وادٍ آخر، وإنما أوتوا من جهة جهلهم بالشرع المتين.

٥- ومن فوائد الجهاد كذلك: إرهاب الكافرين، حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، قال الله -تعالى-: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

٦- ومن فوائد الجهاد كذلك: شفاء صدور المؤمنين، قال الله -تعالى-: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]، فوالله إن قلوبنا لتتقطع غيظًا من قتل الكفار للمسلمين في سوريا وفلسطين والعراق وأفغانستان، فنسأل الله -تعالى- أن يشفي صدورنا منهم، ولا يكون ذلك بمجرد الدعاء، ولكن بالجهاد مع الدعاء والرجاء.

---

(١) قصة إسلام ثمامة بن أثال رضي الله عنه، عند البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤)، وأبي داود (٢٦٧٩)، وأحمد (٧٣٦١، ٩٨٣٣/ الرسالة)، وابن حبان (١٢٣٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١٢٨٣٥)، وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وفيه: فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي خير يا محمد، إنْ تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر...

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤)، والترمذي (٣٣١٥)، وأحمد (١٤٨٢٠، ١٥٢٢٣/ الرسالة)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨١٢)، وأبو يعلى (١٩٥٧)، وابن حبان (٥٩٩٠)، وغيرهم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
وفيه قال عمر: دعني يا رسول الله، أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**دعهُ لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**».
قوله: «**لا يتحدث الناس..** » سياسة عظيمة وحزم وافر؛ لأنَّ الناس يرون الظاهر، والظاهر أن عبد الله بن سلول كان من المسلمين ومن أصحاب الرسول ﷺ، فلو عُوقب من يبطن خلاف ما يظهر لم يعلم الناس ذلك الباطن، فينفرون عمّن يفعل هذا بأصحابه. «كشف المشكل من حديث الصحيحين».

٧- تمييز المؤمنين، وفضح المنافقين كما حدث في غزوة أحد، قال الله -تعالى-: ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وكما حدث في غزوة الأحزاب، قال المنافقون: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وحكى الله ﷻ لنا مقالة المؤمنين، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

٨- تمحيص المؤمنين وتكفير ذنوبهم، كما قال -تعالى- بعد غزوة أحد: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤١]. ولا شك في أن القتال فيه من الخوف والفزع، وتعريض النفس للتلف؛ مما تُكفر به الذنوب، وقد أشار النبي ﷺ إلى شيء من ذلك لما قيل له: ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ فقال ﷺ: «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**»[1]، والآن الصواريخ والقنابل لا السيوف.

٩- الجهاد فيه تربية للمؤمنين على الصبر والثبات والبذل والتضحية لإعزاز دين الله ﷻ، ورفع رايته، وإقامة شريعته، وقد تربى الصحابة الكرام في المدرسة النبوية، في ساحات القتال، ثم فتحوا البلاد شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، حتى استنار أكثر المعروف من الأرض بدعوة الإسلام، وحتى وقف الفارس المسلم طارق بن زياد على شاطئ الأطلنطي يقول: «والله يا بحر، لو أعلم أن وراءك أرض تُفتح في سبيل الله، لخضتك بفرسي هذا»، وما كان يعلم أن وراء المحيط الأمريكتان، وحتى نظر الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى السحابة في السماء، فقال: «أمطري حيث تشائين، فسوف يأتيني خراجك».

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٢٠٥٣)، وفي «الكبرى» (٢١٩١)، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. وصححه الألباني ؒ في «صحيح الجامع» (٤٤٨٣)، و«أحكام الجنائز» (٣٦).
وقوله: «**كفى ببارقة السيوف**» أي: بلمعانها فتنة، فلا يفتن في قبره، ولا يسأل؛ إذ لو كان فيه نفاق لفرَّ عند التقاء الجمعين، فلما ربط في سبيل الله -تعالى- ظهر صدق ما في ضميره.. «فيض القدير».

١٠- حصول الغنائم، فمن فوائد الجهاد حصول الغنائم، وسَوق الأرزاق للمسلمين، وأطيب الرزق الذي يكون فيه المسلم مشغولًا بالطاعة والعبادة، والله ﷻ يسوق له الرزق، كما قال النبي ﷺ: «**وجعل رزقي تحت ظل رمحي**»(١)، وكذلك أرزاق الصحابة، ولما بلغ عمر أن بعض المسلمين زرع بأرض الشام، خاف أن يشغلوا بذلك عن الجهاد في سبيل الله ﷻ، فحرق زرعهم، وقال: «ما بُعثنا زراعين، ولكن بعثنا لنقتل أهل الزرع، ونأكل زرعهم». والمراد بذلك الكافرين، ويحصل ذلك إذا اشتغل الناس بالزرع عن الجهاد، كما قال النبي ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًا، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»(٢).

١١- ومن فوائد الجهاد: اصطفاء الشهداء، كما قال -تعالى-: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، والله -تعالى- يحب أن يرى عباده المؤمنين وهم يبذلون أنفسهم في سبيله، فيبوئهم منازل الشهداء ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

نسأل الله -تعالى- شهادة في سبيله مقبلين غير مدبرين، ونسأله ﷻ أن يرفع علم الجهاد، وأن يقمع أهل الزيغ والعناد.

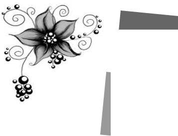


---

(١) صحيح: وتقدم الكلام عليه في فوائد الجهاد.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠٧٠٣)، و«مسند البزار» (٥٨٨٧)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٢٣)، و«الصحيحة» (١١).

وقوله: «**وتركتم الجهاد**» أي: غزو أعداء الرحمن ومصارعة الهوى والشيطان. «من فيض القدير».



٨- نعمة الحياة



نعم الله ﷻ أكثر من أن تحصر، كما قال -تعالى-: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فالعباد عاجزون عن عد نعم الله ﷻ عليهم، فضلًا عن أداء شكر هذه النعم، ولذا قال بعض السلف: «حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، ونعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن اصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين» نسأل الله أن يتوب علينا، وأن يغفر لنا.

والنعم الحسية كثيرًا ما يشعر بها العباد؛ كنعمة الزوجة، والمسكن الطيب، والطعام الطيب، وغير ذلك، ولكن هناك نعم قد لا يشعر العباد بها؛ كنعمة القرآن مثلًا، وقد أخبر النبي ﷺ أنه في آخر الزمان يُرفع من السطور والصدور، ولا يبقى في الأرض منه آية، فكيف يعيش الناس بدون القرآن؟! وكيف تكون الحياة بلا قرآن؟! والمحبون له لا يستطيعون أن يعيشوا لحظات دون سماعه أو قراءته، كذلك نعمة الكعبة إذا هدمها صاحب السويقتين من الحبشة في آخر الزمان، ولذا أمر النبي ﷺ بالاستمتاع بالبيت قبل أن يُهدم، نعوذ بالله من إدراك هذا الزمان، الذي يرفع فيه القرآن، وتهدم فيه الكعبة، من هذه النعم التي قد لا يعرف قيمتها كثير من الناس نعمة الحياة، ونعمة العمر والوقت، وأنا أسلط الضوء على هذه النعمة لعلنا نعرف قدرها، ونقوم بشكرها.

أول ذلك أننا مازلنا في وقت المهلة، فمهما أسرف العبد على نفسه بالمعاصي، يمكنه أن يرجع إلى ربه، كما قال -تعالى-: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فباب التوبة لا يزال مفتوحًا لنا، قال النبي ﷺ: «**إن الله ﷻ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[1]. والعبد يعرف

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧)، وقال: «حسن غريب»، وأحمد (٦١٢٥)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، والحاكم (٤/٢٥٧) وصححه، ووافقه الذهبي، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، وحسنه الألباني رحمه الله.

قدر النعمة إذا حرم منها، فمهما كان متمتعًا بالصحة لا يعرف قدر الصحة، فإذا ابتلي بمرض -نسأل الله العافية-، عرف قدر الصحة، ولا يعرف نعمة الحرية من لم يبتلى بالسجن -نسأل الله العافية- أيضًا، وإنما يعرف قدرها من أُبتلي بالسجن، فهل نعمة الحياة كذلك يعرف قدرها من حرم منها، والله ﷻ من رحمته بنا سجل لنا في كتابه ما يقوله من يُحرم من هذه النعمة عند الموت وعندما يقف أمام النار، وعندما يقف أمام الملك الجبار، وكذلك وهو بين طبقات النيران، حتى نعرف قدر نعمة الحياة، وكيف أنها فرصة للإيمان والعمل الصالح، قال -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ [المؤمنون]، فيعرف المفرط عند ذلك قدر نعمة الحياة، وكيف أنها فرصة للإيمان والعمل الصالح، فهو لا يطلب الرجوع إلى الدنيا من أجل زوجته الجميلة التي كان يحبها، ولا من أجل أولاده، ولا من أجل منصبه الذي كان يشغله، ولا من أجل المال الذي جمعه وأنفق فيه زهرة شبابه، وإنما يريد الرجوع من أجل العمل الصالح، ويكون الرد عليه: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، و﴿كَلَّآ ﴾: أداة ردع في اللغة، وقوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ مجرد كلمة لا يترتب عليها شيء؛ لأن من خرج من الدنيا لا يعود إليها، ولكنه يحبس في برزخ بين الدنيا والآخرة إلى يوم يبعثون.

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فتجدد هذه الأمنية وهي الرجوع إلى الحياة من أجل أن يترك فريق المكذبين وينضم إلى فريق المؤمنين، ثم تتجدد هذه الأمينة، وهذا الطلب، عندما يقف أمام الملك، فقال ﷻ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقيمة الإيمان أنه إيمان بالغيب، ولذا كانت صفة المتقين الأولى إيمانهم بالغيب، كما قال -تعالى-: ﴿ ذَٰلِكَ

﴿ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة]، فمن أراد أن يؤجل الإيمان بالآخرة، حتى يتأكد من صدق الله ﷻ، وصدق رسوله ﷺ، نقول له: سوف تتأكد من ذلك ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، ولكن في وقت لن تستطيع أن تعود إلى الدنيا فتعمل صالحًا، فما فائدة هذا الإيمان؟!

ونبقى مع الآيات القرآنية التي تبين نعمة الحياة، وأن من حرم من هذه النعمة، سيتمنى لو عادت إليه مرة ثانية؛ حتى يجتهد في الإيمان، والعمل الصالح، يقول ﷻ مخبرًا عن المفرطين، وكيف يكون حالهم وهم بين طبقات النيران: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، يذكرهم الله ﷻ أو تذكرهم الملائكة بنعمة الحياة، ونعمة العمر، ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقد أعذر الله إلى امرئ أجله ستين سنة، أو سبعين سنة، ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أرسل إليهم من يذكرهم، قيل: النذير: المنذر الداعي بدعوة الرسول ﷺ، وقيل: النذير: الشيب، وقيل: النذير: المرض.

فالحياة نعمة، والعمر نعمة، بل كل لحظة من لحظات العمر نعمة، فساعات الليل والنهار التي تمر بنا نعمة، تمنن الله ﷻ بها فقال -تعالى-: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم]، فسخر الله ﷻ لنا الليل والنهار من أجل أن نعمرهما بطاعة العزيز الغفار.

يا من بدنياه انشغل ... وغرَّه طول الأمل

الموت يأتي بغتةً ... والقبر صندوق العمل

وقال -تعالى-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. فكل يوم يعيشه المؤمن فهو غنيمة؛ لأن المؤمن لا يزداد من الدنيا إلا خيرًا. وكل نفس من أنفاس عمره فهو جوهرة، يستطيع أن يشتري بها كنزًا لا

يفنى أبد الآباد. قال النبي ﷺ: «**من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له بها نخلة في الجنة**»[١]، فانظر إلى مُضيِّع الساعات، كم يفوته من النخيل؟ وقد قال بعض الصحابة: «بلغنا أن نخل الجنة، ساقها من ذهب، وسعفها من حُلل، وثمارها أبيض من اللبن، وألين من الزبد، وأحلى من العسل والشهد». وقال ﷺ: «**من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، حتى يختمها عشر مرات، بُني له قصر في الجنة**»[٢].

ومن خطر الأنفاس كذلك أن عدد الأنفاس التي قدرها الله ﷻ لنا مغيب عنا، فلا نعرف قدر العمر، ومقدار رأس المال. قال الحسن البصري: «المبادرة المبادرة، فإنما هي الأنفاس، لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله ﷻ، رحم الله امرءًا نظر في نفسه، ثم بكى على عدد ذنوبه، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] آخر العدد: خروج نفسك، آخر العدد: فراق أهلك، آخر العدد: دخولك في قبرك».

فقوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] يعني الأنفاس، أي أن الله ﷻ قدر لكل واحدٍ عددًا محددًا من الأنفاس لا يتجاوزه، وكلما تنفس نفسًا سجل عليه -عَدٌّ تنازلي- حتى يصل إلى آخر العدد، عند ذلك خروج النفس، وفراق الأهل، ودخول القبر. فإذا كنا لا نعرف رأس مالنا من الأنفاس، فأي نفس يُنفق في غير طاعة الله ﷻ نوع من المخاطرة، وأخطر من ذلك أيضًا أن آخر نفس نتنفسه تُغلق به العاقبة، قال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالخواتيم**»[٣]، وإنما أداة حصر في اللغة، فمن ختم له بعمل من أعمال أهل الجنة دخل الجنة، ومن ختم له بعملٍ من أعمال أهل النار دخل النار، والعياذ بالله، فنحن لا نأمن مع كل نفس، أن يكون آخر الأنفاس.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٤٦٤)، وابن حبان (٢٣٣٥) موارد، وأبي يعلى (٢٢٣٣)، والحاكم (١٨٤٧)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٦٥)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وصححه الألباني رحمه الله في «المشكاة» (٢٣٠٤)، و«الصحيحة» (٦٤)، و«صحيح الترغيب» (١٥٤٠).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١٥٦١٠)، والدارمي (٣٤٧٢)، وغيرهما من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٤٧٢)، و«الصحيحة» (٥٨٩).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٠٧)، ومسلم (١١٢)، وأحمد (٢٢٨٣٥/ الرسالة)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

كان السلف رضي الله عنهم أحرص الناس على أوقاتهم، قال رجل لأحد العلماء: قف أكلمك. فقال: «أوقف الشمس»، وكان أحدهم إذا جلس عنده الناس فأطالوا الجلوس يقول: أما تريدون أن تقوموا، إن ملك الشمس يجرها لا يفتر.

وكانوا يبخلون بالوقت والنفس أن يُنفق في غير طاعة الله عز وجل أكثر من أشد الناس بخلًا بماله، وكانوا يعدون خصال الخير ويبكون على أنفسهم أن فاتهم شيء منها، دخلوا على عابد مريض، فنظر إلى قدميه وبكى، وقال: «ما أغبرتا في سبيل الله»، وكان أحدهم يقول: «أَعُدُّ ثلاثين خصلة من خصال الخير، ليس فيَّ شيء منها»، ودخلوا على الجنيد وكان في النزع وكان يصلي، فقالوا له: «الآن؟! فقال: الآن تُطوى صحيفتي»، ودخلوا على أبي بكر النهشلي، وكان في النزع وكان صائمًا، فقالوا له: اشرب قليلًا من الماء، فقال: «حتى تغرب الشمس»، بكى أحد السلف عند موته فسُئل عن سبب بكائه فقال: أبكي أن يصوم الصائمون ولست فيهم، ويصلي المصلون ولست فيهم.

ما كفتهم الدنيا في طاعة الله عز وجل، بل تمنوا لو واصلوا الطاعة بعد الموت، كان ثابت البناني يقول: «يا رب إن أذنت لأحدٍ أن يصلي في قبره، فأذن لي»، وما كفتهم الدنيا في البكاء على أنفسهم، وتمنوا لو وجدوا من يبكي عنهم بعد موتهم، كان يزيد الرقاش يبكي ويقول: «يا يزيد، من يبكي بعدك لك؟ من يترضى ربك عنك؟» بكى أحد السلف عند موته، فسُئل عن سبب بكائه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فإذا كان الله عز وجل لا يتقبل إلا من المتقين فما أنعاه على كثير من العاملين، لما نزل الموت بمحمد بن المنكدر أخذ يبكي بكاءً شديدًا، فأحضروا له أبا حازم الزاهد، فسأله عن سبب بكائه، فقال: «سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فأخاف أن يبدو لي من الله ما لم أكن احتسب»، فأخذ أبو حازم يبكي معه، فقالوا له: أتينا بك من أجل أن تخفف عنه فزدت في بكائه، فأخبرهم بما قال، قرئ على الإمام أحمد في مرض الوفاة، أن طاووسًا كان يكره الأنين، فما أنَّ حتى مات.

أين وصفك من هذه الأوصاف؟ أين شجرة الزيتون من شجر الصفصاف؟.

لقد قام القوم وقعدت، وجدوا في الجدِّ وهزلت، ما بيننا وبين القوم، إلا كما بين اليقظة والنوم.

لا تعرضن بذكرنا في ذكرهم، ليس السليم إذا مشى كالمقعد.

إن كنت تنوح يا حمام البان للبين فأين شاهد الأحزان

أجفانكم للدموع أم أجفاني لا يقبل مدعٍ بلا برهاني

وإنما ينطبق علينا قول القائل:

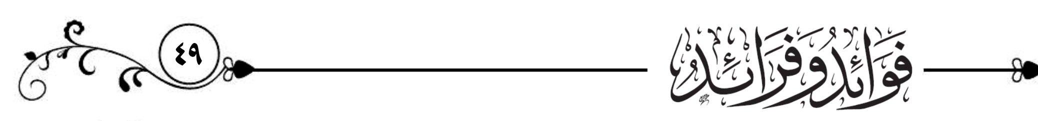
يا من إذا تشبه بالصالحين فهو عنهم متباعد.

وإذا تشبه بالمذنبين فحاله وحالهم واحد.

يا من يسمع ما يلين الجوامد، وطرفه جامد، وقلبه أقسى من الجلامد.

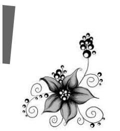
إلى متى تدفع التقوى عن قلبك؟ وهل ينفع الطرق في حديد بارد؟







٩- فوائد التوحيد والعقيدة الصحيحة



١- التوحيد أعظم أسباب السعادة وانشراح الصدر، لأنه أعظم درجات التأدب مع الله ﷻ، قال -تعالى-: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال -تعالى-: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، فالتوحيد هو أعظم أسباب السعادة، كما أن الشرك هو أعظم أسباب الشقاء، قال ابن القيم رحمه الله: «فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه»

فالنطق بكلمة التوحيد من أعظم أسباب السعادة كما يحكي أحد إخواننا من الدعاة الموفقين، أن أحد أصحاب الأعمال والأموال بأمريكا كان عنده اكتئاب دائم، وحزن مستمر، وكان كلما دخل إحدى شركاته وجد موظفًا مبتسمًا، فسأله عن سبب سعادته، فأخبره بأن سبب سعادته أنه مسلم، فقال له: لو أسلمت أجد هذه السعادة؟ فقال: نعم. فذهب به إلى إحدى المراكز الإسلامية، وشهد شهادة الحق، ثم أخذ يبكي بكاءًا شديدًا، فسئل عن سبب بكائه، فقال: أول مرة أشعر بالسعادة.

فسعادة القلوب في أن تتعلق بعلام الغيوب، وغفار الذنوب ﷻ، فمن كمل توحيده كملت سعادته، ومن نقص توحيده نقصت سعادته في الدنيا والآخرة.

٢- من فوائد التوحيد: دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب، قال النبي ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله، مخلصًا من قلبه** -وفي رواية «**متيقنًا**»، وفي رواية: «**مصدقًا بها قلبه لسانه**- **دخل الجنة**»[(١)].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٩٩، ٦٥٧٠)، وأحمد (٨٨٥٨/ الرسالة)، وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث له أكثر من طريق، ورواية الحديث على معاني.

قال شيخ الإسلام: «فإن حقيقة التوحيد انجذاب القلب إلى الله ﷻ، بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك» إلى أن قال: «فإن قالها بإخلاص ويقين تام، لم يكن في هذه الحال مصرًا على ذنبٍ أصلًا، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإنه لا يكون في قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له الذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وهذه التوبة، وهذه المحبة، وهذا اليقين لا تترك له ذنبًا إلا مُحي كما يمحو الليل النهار، فإن قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مصر على ذنبٍ أصلًا فيغفر له ويحرم على النار».

وقال ابن القيم رحمه الله في شرح حديث البطاقة: «يُعفى لأهل التوحيد المحض ما لا يُعفى لغيرهم، فلو أتى الموحد الذي أخلص توحيده لله ﷻ ربه ﷻ بقراب الأرض خطايا؛ لأتاه الله ﷻ بقرابها مغفرة».

٣- ومن فوائد التوحيد: أن الذرة منه في قلب العبد تمنع خلوده في النار، وإذا كمل توحيده حُرم على النار. قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠]. وفي حديث الشفاعة: «**ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا**»[(١)]، وكان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث، فاقرأوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]، فلبركة التوحيد الذرة الواحدة منه تمنع من الخلود في النار، «**ومن قال: لا إله إلا الله نفعته يومًا من دهره أصابه قبل ذلك ما أصابه**»[(٢)].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣)، وأحمد (١١٨٩٨/ الرسالة)، والحاكم (٨٧٣٦)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (١/٥٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (١٩٣٢).

٤- ومن فوائد التوحيد أيضًا: أن أهل التوحيد لو دخلوا النار بذنوبهم، لا يعاملون معاملة الكفار، ولا يخلدون خلودهم؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها، ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم – أو قال: بخطاياهم – فأماتتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل**» فقال رجل: كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان بالبادية[1]، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يُعذب ناس من أهل التوحيد في النار، حتى يكونوا فيها حممًا، ثم تدركهم الرحمة، فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة**» قال: «**فيرش عليهم أهل الجنة الماء، فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل، ثم يدخلون الجنة**»[2].

قال الإمام النووي في التعليق على حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «وأما معنى الحديث فالظاهر -والله أعلم- من معنى هذا الحديث: أن الكفار الذين هم أهل النار والمستحقون للخلود، لا يموتون فيها، ولا يحيون حياة ينتفعون بها ويستريحون معها، كما قال الله -تعالى-: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [غافر: ٣٦]، وكما قال -تعالى-: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣]، وهذا جارٍ على مذهب أهل الحق، أن نعيم أهل الجنة دائم، وأن عذاب أهل الخلود في النار دائم.

وأما قوله: «**ولكن ناس أصابتهم النار...**» إلى آخره، فمعناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله عز وجل إماتة بعد أن يعذبهم المدة التي أرادها الله -تعالى-، وهذه الإماتة إماتة حقيقية، يذهب معها الإحساس ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم، ثم يميتهم، ثم يكونون محبوسين في النار، من غير إحساس المدة التي قدرها الله -تعالى-،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٥)، وابن ماجه (٤٣٠٩)، وأحمد (١٠٩٥٨، ١١٠١٩/ الرسالة)، والدارمي (٢٨١٧)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥٩٧)، وأحمد (١٥١٩٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٣٥٩)، عن جابر رضي الله عنه.

ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحمًا، فيحملون ضبائر كما تحمل الأمتعة، ويلقون على أنهار الجنة، فيحيون وينبتون نبات الحبة في حميل السيل، في سرعة نباتها وضعفها، فتخرج لضعفها صفراء ملتوية، ثم تشتد قوتهم بعد ذلك، ويصيرون إلى منازلهم، وتكمل أحوالهم، فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه»(١).

٥- التوحيد هو أعظم أسباب المغفرة، ولو وضعت منه ذرة على جبال السيئات لنسفتها نسفًا، قال الله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة...**»(٢).

وعن النبي ﷺ قال: «**يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مد البصر، ثم يقال له: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقال: ألك عذرٌ أو حسنة، فيهاب الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقال: بلى إن لك عندنا حسنات، وإنه لا ظلم عليك، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم. قال: فيوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة**»(٣)، قال العلماء: هذا الرجل قام بالتوحيد حق القيام، ولكنه وقع في ذنوب دون الشرك، فنجا ببركة التوحيد.

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٣/٣٨).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٠٥)، والضياء (١٥٧١)، عن أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٣٣٨)، و«الصحيحة» (١٢٧).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٦٩٩٤)، وابن حبان (٢٢٥)، والحاكم (١٩٣٧)، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٨٠٩٥)، و«الترغيب» (١٥٣٣)، و«المشكاة» (٥٥٥٩)، وفي رواية «**إنَّ الله سيُخلص رجلًا من أمتي...**» وصححه الألباني رحمه الله.

مسألة: «فإن قيل: الأعمال أعراضٌ لا يمكن وزنها، وإنَّما يوزن الأجسام، أُجيب بأنه يُوزن السجل الذي كتب فيه الأعمال، ويختلف باختلاف الأحوال، أو أن الله -تعالى- يُجسم الأفعال والأقوال فتُوزن، فتثقل الطاعات، وتطيش السيئات، لثقل العبادة على النفس، وخفة المعصية عليها». «المرقاة».

٦- التوحيد هو أعظم سبب لتفريج الكربات في الدنيا والآخرة؛ قال النبي ﷺ: «**ما أصاب عبدًا قط همٌّ ولا حزن، فقال: اللَّهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا**»(١).

٧- التوحيد شرط لقبول الأعمال الصالحة وانتفاع العبد بها في الآخرة؛ قال الله -تعالى-: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال -تعالى-: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعة؟ قال: «**لا يا عائشة، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»(٢).

٨- إذا عمل العبد أعمالًا صالحة وهو على الكفر والشرك، ثم تاب وأناب وحقق التوحيد، فإنه ينتفع بهذه الأعمال الصالحة، ويعود إليه ثوابها، كما قال النبي ﷺ لحكيم ابن حزام لما سأله عن أعماله الصالحة قبل أن يسلم: «**أسلمت على ما أسلفت من الخير...**»(٣)، أي: أنه يرجع إليه ثواب عمله قبل الإسلام، ومنع ثوابها في الآخرة بسبب فقده لشرط التوحيد.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد، والبزار، وغيرهما، وسبق في الفقرة رقم (٥) الوظيفة...

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٤، ٣٦٥)، وأحمد (٢٤٦٢١)، وغيرهما.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٩٩٢)، ومسلم (١٢٣)، وأحمد (١٥٢٥٥، ١٥٥١٢)، عن حكيم بن حزام رضي الله عنه.

فائدة: قال البخاري في «تاريخه»: «عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين في الإسلام».

قالوا: وكان أعتق في الجاهلية مائة رقبة، وأعتق في الإسلام مثلها، وساق في الجاهلية مائة بدنة، وفي الإسلام مثلها». «السير» للذهبي.

٩- التوحيد أعظم أسباب الأمان في الدنيا والآخرة: قال -تعالى- حاكيًا عن خليله إبراهيم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام]، وقد ثقل ذلك على الصحابة الكرام وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «**ألم تسمعوا قول الرجل الصالح:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[١]. فبيّن النبي ﷺ أن الظلم المراد به في هذه الآية ليس ظلم النفس، وإنما هو أظلم الظلم؛ وهو الشرك بالله ﷻ.

فمهما سلم العبد من الشرك بالله، وأخلص توحيده لله ﷻ، كان له من الأمن والاهتداء بحسبه، وهذا الأمن ظاهر في المجتمعات المسلمة، مفقود كله أو جله في المجتمعات الكافرة.

١٠- أهل التوحيد هم الذين ينالون شفاعة النبي ﷺ. قال النبي ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستحابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، فهي نائلة -إن شاء الله تعالى-، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»[٢]، وقال ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه**»[٣]. بل ثبتت شفاعته ﷺ لأهل الكبائر من الموحدين، كما قال ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[٤]، وهي التي أنكرها الخوارج.

---

(١) صحيح: وتقدم، أخرجه البخاري (٣٤٢٩)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٠٦٧)، وأحمد (٣٥٨٩، ٤٠٣١/ الرسالة)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٨)، والترمذي (٣٦٠٢)، وابن ماجه (٤٠٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٧٠)، وأحمد (٨٨٤٤/ الرسالة)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٢٨)، والترمذي (٢٤٣٥)، وأحمد (١٣١٥٥)، وابن خزيمة (٣٩٧) «التوحيد»، وابن حبان (٦٤٧٧)، عن أنس رضي الله عنه.

١١- التوحيد يُحرم مال العبد ودمه وعرضه. قال النبي ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوها فقد عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»(١). وقال ﷺ في أعظم محفل شهدته البشرية، في حجة الوداع، وقد شهدها مع النبي ﷺ أكثر من مائة ألف: «**إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**»(٢). وقال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه**»(٣).

١٢- أهل التوحيد هم أهل الحياة الطيبة في الدنيا، والسعادة الأبدية السرمدية في جنة الله ﷻ؛ قال -تعالى-: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. فالحياة الطيبة في الدنيا وقف على أهل الإيمان والعمل الصالح، كما أن الضنك والشقاء والهم والغم والحزن وقف على أهل الشرك والإعراض عن الله ﷻ. قال -تعالى-: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه]. وقال النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتفش**»(٤).



---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١)، والترمذي (٢٦٠٦)، والنسائي (٣٩٨٦)، وابن ماجه (٣٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٢٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٠٧٤)، وابن خزيمة (٢٨٠٩)، والنسائي في «الكبرى» (٣٩٨٧)، عن جابر رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٢٧)، وابن ماجه (٣٩٣٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٨٧)، وابن ماجه (٤١٣٥) مختصرًا، والبيهقي في «الكبرى» (١٨٤٩٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٠ - أقسام الناس في التوبة (*)

التوبة هي الرجوع إلى الله ﷻ، وسلوك الصراط المستقيم الموصل إلى جنته، وترك صراط المغضوب عليهم والضَّالين الموصل إلى عذابه، والله ﷻ أمر الناس جميعًا بالتوبة فقال ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وعلق الله ﷻ الفلاح بالتوبة فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، وأخبر ﷻ عن الذين لا يدخلون من باب التوبة بأنهم ظالمون، فقال ﷻ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، قال بعض السلف: من لم يتب كل صباح ومساء كان من الظالمين، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، وأخبر ﷻ عن توبته على النبي ﷺ، والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، فقال ﷻ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٧].

والناس في التوبة على أقسام:

❍ **القسم الأول:** من يعيش حياته كلها معرضًا عن الله ﷻ، لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره ونهيه، فهو يحيا في الدنيا حياة البهائم، كما قال -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢]، فهو يأكل ليعيش، ويعيش ليأكل، لا يعرف الوظيفة التي خلق من أجلها، ولا يعرف الغاية التي ينبغي عليه أن يسعى لها، لم يقف في حياته يومًا في صفوف المصلين يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، لعله لم يدخل المسجد إلا مرة واحدة، ولا يدخله على قدميه بل محمولًا على

(*) **التوبة**: قالوا: ومنزلة التوبة أولى المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يُفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه، ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك «مدارج السالكين».

خشبته، ولا يدخل من أجل أن يصلي، بل من أجل أن يُصلى عليه. فهل ينفعه هذا الدخول؟! إنه لم يدخل بإرادته واختياره، بل بإرادة مشيعيه واختيارهم، لما كان سعيد ابن المسيب سيد التابعين وأعلم التابعين في سياق الموت، كان يغيب عن وعيه ويفيق، فلما غاب عن وعيه، قال نافع بن جبير: وجهوه إلى القبلة، فلما أفاق سعيد قال: من الذي أمركم أن توجهوني أنافع بن جبير؟ قالوا: نعم، قال: والله لو لم تكن وجهتي إلى القبلة، لا ينفعني توجيهكم.

والجزاء من جنس العمل، فكما كان في الدنيا لا يحيا الحياة التي يحبها الله ﷻ له، ويرضاها له، وهو كذلك ليس جمادًا لا يحس، فهو أيضًا في الآخرة، لا يموت فيها ولا يحيا، لا يموت فيفقد الإحساس بالألم، ولا يحيا حياة يجد فيها راحته وسعادته، ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، أي: يأتيه الهلاك والعطب والبوار والدمار من كل مكان، ولكنه لا يموت لأنه في دار القرار، ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وحسب المنايا أن يصرن أمانيا؛ أي: حسب العبد من البلايا والرزايا، أن يكون الموت أمنيته. قال بعض السلف: احذر الموت وأنت في هذه الدار، قبل أن تصل إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده.

فهذا هو القسم الأول من أقسام الناس في التوبة، فهو الذي لم يوفق إلى لحظة صدق واحدة مع ربه ﷻ ومع نفسه، وهذا حال كثير من الناس -نسأل الله العافية-.

❍ **القسم الثاني**: من يعرف ربه ﷻ برهة من عمره، وزمانًا من دهره، ثم ينقلب لعلم الله ﷻ فيه، فيعمل بمعصية الله ﷻ ويموت على ذلك، ما أصعب العمى بعد البصيرة، والضلالة بعد الهدى، والمعصية بعد التقى، كم من وجوه خاشعة وقع على قصص أعمالها عاملة ناصبة، كم من قارب مركبه ساحل النجاة، فلما همَّ أن يرتقي لعب به الموج فغرق، كل العباد تحت هذا الخطر، «**قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**».

ليس العجب ممن هلك كيف هلك؟ إنما العجب ممن نجا كيف نجا؟ يقول النبي ﷺ: «**فوالذي نفسي بيده، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه**

وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[١]. وتقول السيدة عائشة ﵂: «إن الرجل ليعمل زمانًا بعمل أهل الجنة، وهو من أهل النار».

وفي بعض روايات الحديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس»[٢]، فقال العلماء: الرجل يعمل بعمل أهل الجنة في الظاهر، ولكن عنده رياء أو عجب أو كبر، يظهر عليه في آخر عمره، فيختم له بعمل من أعمال أهل النار، والعياذ بالله.

وقال الإمام النووي: «وهذا -بحمد الله- قليل في أمة محمد ﷺ، والكثير فيهم من يعمل بعمل أهل النار، ثم يوفق لتوبة نصوح، فيعمل بطاعة الله ﷻ ويموت على ذلك، كمن يموت في آخر يوم من رمضان، أو بعد الانتهاء من الحج، أو وهو ساجد لله ﷻ، وقد كان قبل ذلك معرضًا عن الله ﷻ، والله ﷻ سبقت رحمته غضبه».

❍ **القسم الثالث:** وهو من يعمل بمعصية الله ﷻ زمانًا من عمره، ثم يوفق لتوبة نصوح ويموت على ذلك، قال النبي ﷺ: «**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[٣].

وهؤلاء على طبقتين: منهم من يتوب قبل موته بمدة مديدة تؤهله للوصول إلى الدرجات، ومنهم من يتوب قبل موته بمدة يسيرة، فحسبه أن ينجو من اللفحات وأن يفوز بالجنات.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٠٨)، والترمذي (٢١٣٧)، وابن ماجه (٧٦)، وأحمد (٣٦٢٤، ٣٩٣٤/ الرسالة)، وغيرهم من حديث عبد الله بن مسعود ﵁.

قال الإمام النووي: والمراد بهذا الحديث أن هذا قد يقع في نادر من الناس، لا أنه غالبٌ فيهم، ثم أنه من لطف الله -تعالى- وسعة رحمته انقلاب الناس من الشر إلى الخير في كثرة، وأما انقلابهم من الخير إلى الشر ففي غاية الندور، ونهاية القلة، وهو نحو قوله في الحديث القدسي: «**إنَّ رحمتي سبقت غضبي**» «شرح صحيح مسلم للنووي».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٩٨، ٤٢٠٢)، ومسلم (١١٢)، وأحمد (٢٢٨١٣/ الرسالة)، وأبي يعلى (٧٥٤٤) من حديث سهل بن سعد ﵁.

قال النووي: ففيه التحذير من الاغترار بالأعمال، وأنه ينبغي للعبد أن لا يتكل عليها، ولا يركن إليها مخافة من انقلاب الحال للقدر السابق، وكذا ينبغي للعاصي أن لا يقنط، ولغيره أن لا يُقنطه من رحمة الله -تعالى-. «السابق».

(٣) صحيح: وسبق الكلام عليه.

بقي قسم هو أشرف الأقسام، وحال هي أشرف الأحوال، وهي حال نبينا محمد ﷺ، وهو القسم الرابع.

❍ **القسم الرابع:** وهو من يعمل بطاعة الله ﷻ عمره كله، ثم ينبه إلى قرب أجله فيجتهد في الطاعة والعبادة، حتى يموت على عمل يصلح للقاء. لما نزل قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، كان النبي ﷺ أشد ما يكون اجتهادًا في أمر الآخرة، كان لا يقوم ولا يقعد إلا قال: «**سبحان الله وبحمده**»، يتأول القرآن، وكان يعتكف كل سنة عشرًا واعتكف في السنة الأخيرة من عمره المبارك عشرين ليلة، وكان جبريل يعارضه القرآن مرة فعارضه في السنة الأخيرة مرتين. أَسَرَّ النبي ﷺ إلى فاطمة الزهراء سيدة نساء الأمة بحديث فبكت فاطمة رضي الله عنها، ثم أَسَرَّ إليها بحديث آخر فضحكت، فسألها بعض أزواج النبي ﷺ عمَّا أسرَّ به رسول الله ﷺ، فقالت: ما كنت لأفشي سِرَّ رسول الله ﷺ، فلما لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى أخبرت بأن جبريل كان يعارضه القرآن مرة، وأنه في هذا العام عارضه القرآن مرتين، وكان هذا في مرض وفاته ﷺ، قال: «**وما أرى ذلك إلا لقرب أجلي**»، فالنبي ﷺ يفهم الإشارات من ربه على قرب أجله، فلما بكت فاطمة قال لها: «**ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء الجنة**»، وضحكت رضي الله عنها، وأخبرها بأنها أول أهله لحوقًا به ﷺ، فماتت بعده بستة أشهر، وكانت أول أهله لحوقًا به، وكان هذا علمًا من أعلام النبوة[1].

وخرج النبي ﷺ للحج في العام العاشر من الهجرة، وخرج الصحابة رضي الله عنهم معه، فكانوا من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله مد البصر، وقال ﷺ: «**خذوا عني مناسكم، لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا**»[2]، والصحابة عرب يفهمون لغة العرب،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٢٤، ٦٢٨٥)، ومسلم (٣٤٥٠)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٢٩٧)، وأبو داود مختصرًا (١٩٧٠)، والنسائي (٣٠٦٢)، وأحمد (١٤٤١٩، ١٥٠٤١/ الرسالة)، والنسائي في «الكبرى» (٤٠٠٢)، وغيرهم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وللألباني رحمه الله رسالة جمع فيها كل طرق وألفاظ الحديث سماها «حجة النبي ﷺ».

ويعلمون أن الترجي في كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ على القطع، كما قال ابن عباس: عسى من الله واجب، على عادة الملوك، ففهموا أن هذه الحَجَّة هي حجة الوداع، وزاد من ذلك أن النبي ﷺ استشهدهم على أنفسهم، فقال في خطبته بعرفة: «**اللَّهم هل بلغت، اللَّهم اشهد**»، وكان يرفع إصبعه الشريفة إلى السماء، ثم ينكسها إليهم ويقول: «**اللَّهم اشهد، اللَّهم اشهد**».

ونحن نشهد بأنه قد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، فجزاه الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته.

وفي طريق عودته ﷺ إلى المدينة، خطب الناس وقال: «**إنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب**»[1]، وظلَّ النبي ﷺ يعرض بقرب أجله، جلس يومًا على المنبر وقال «**إن عبدًا خيَّره الله ﷻ بين زهرة الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله**» فبكى أبو بكر وقال: بل نفديك يا رسول الله بآبائنا وأمهاتنا، ولم يفهم هذه الإشارة إلا صديقه الحميم ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾، لذا قال أبو سعيد الخدري راوي الحديث: فعجبنا من هذا الشيخ، فكان العبد الذي خُيِّر هو رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر أعلمنا، فأخذ النبي ﷺ يثنى على أبي بكر ويقول: «**إن من أمَّن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا من البشر خليلًا لاتخذت أبا بكر لكن صاحبكم خليل الله**»[2].

وودع النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن، ومعاذ يركب الدابة، ورسول الله ﷺ يمشي إلى جواره، ويقول له: «**لعلك تأتي فلا تجدني، لعلك تأتي إلى مسجدي أو قبري**»، ويبكي معاذ جشمًا لفراق رسول الله ﷺ، فإذا كان سيد المحسنين ﷺ يؤمر بأن يزيد في إحسانه، فكيف يكون حال المسيء.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٠٨)، وأحمد (١٩٢٦٥/ الرسالة)، وعبد بن حميد (٢٦٥)، والدارمي (٣٣٥٩) والنسائي في «الكبرى» (٨١١٩)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٨٥٧)، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢)، والترمذي (٣٦٦٠)، وأحمد (١١١٣٤)، وابن حبان (٦٥٩٤)، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فالقسم الرابع من الناس في التوبة أن يكون العبد مطيعًا طوال عمره، ثم يستشعر قرب الأجل، إما لمرض يحسب أنه مرض الموت، أو لكبر سن، كأن يرى الشيب في رأسه ولحيته، أو يرى رؤيا تشير إلى قرب أجله، فعليه أن يجتهد في الطاعة والعبادة، حتى يموت على عمل يصلح للقاء. فنسال الله –تعالى– أن يوفقنا لتوبة نصوح قبل الموت.

فالبدار البدار إلى التوبة، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملًا يجاوز الأمر فيه مجهود الأطباء، فلا ينفع بعد ذلك نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، وتحق الكلمة عليه أنه من أصحاب الجحيم.

التوبة التوبة قبل أن يأتيكم من الموت النوبة، فلا تحصلوا إلا على الخسران والخيبة، الإنابة الإنابة قبل غلق باب الإجابة، الإفاقة الإفاقة فقد قرب وقت الفاقة.

أيها العاصي ما يقطع من صلاحك الطمع، ما نصبنا شَرَكَ المواعظ إلا لتقع، فإذا خرجت من المجلس وأنت عازم على التوبة، فقال لك رفقاؤك في المعصية: هلم إلينا، فقل لهم: كلا، ذاك خمر الهوى الذي عهدتموه قد استحال خلا، يا من سَوَّد كتابه بالسيئات، أما آن لك بالتوبة أن تمحو، يا سكران القلب بالشهوات، أما آن لفؤادك أن يصحو.





١١- فوائد الذكر (*)

قال الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال -تعالى-: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال -تعالى-: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، قال ابن القيم رحمه الله: «فقيد الأمر بالذكر بالكثرة والشدة، لشدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله، كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله عز وجل».

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر، كمثل الحي والميت**»(٢)، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يقول الله -تبارك وتعالى-: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم**»(٣)، وفي الترمذي عن عبد الله بن بُسر، أن رجلًا قال: يا رسول الله إن أبواب

(*) **الذكر**: قال ابن القيم رحمه الله: «منزلة الذكر، وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون، وفيها يتَّجِرُون، وإليها دائمًا يتردّدون، والذكر منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجسادُ لها قبورًا، وعمارة ديارهم، التي إذا تعطلت عنْهُ صارت نورًا». «مدارج السالكين».

وفي ذلك يقول القائل: «إذا مرضنا تداوينا بذكركُمُ، فنتركُ الذكر أحيانًا فننتكِسُ»، وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العملُ عن الذكر، كان كالجسد الذي لا روح فيه، وقال بعض السلف: «إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعَهُ، كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسَّهُ الإنسيُّ». «السابق».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩)، وابن حبان (٨٥٤)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ولمسلم: «**مثلُ البيت الذي يذكر**».

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، وسبق الكلام عليه «فوائد الدعاء».

الخير كثيرة، ولا أستطيع القيام بها، فأخبرني بشيء أتشبث به، ولا تكثر عَلَيَّ فأنسى، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله ﷻ**»[1].

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لكل شيء جلاء، وجلاء القلوب ذكر الله ﷻ».

قال ابن القيم رحمه الله: «وفي الذكر نحوٌ من مائة فائدة».

ونذكر منها على سبيل الاختصار:

١- أنه يطرد الشيطان، ويقمعه ويكسره.

٢- يرضي الرحمن ﷻ.

٣- يزيل الهم والغم عن القلب.

٤- يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

٥- يقوي القلب، والبدن.

٦- ينور الوجه، والقلب.

٧- يجلب الرزق.

٨- يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

٩- يورثه المحبة، التي هي روح الإسلام.

١٠- يورثه المراقبة، حتى يدخله من باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه.

١١- يورثه الإنابة، التي هي الرجوع إلى الله ﷻ.

١٢- يورثه الهيبة لربه، وإجلاله ﷻ.

١٣- يورثه ذكر الله ﷻ، كما قال -تعالى-: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

١٤- هو قوت القلب، وقد جلس شيخ الإسلام ابن تيمية من الفجر إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت، فقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد هذا الغداء، سقطت قوتي.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٢)، وأحمد (١٧٦٢٨، ١٧٦١١)، والبيهقي في «الكبرى» (٦٥٢٦)، عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (١٤٩١)، و«صحيح الجامع» (٧٧٠٠).

١٥- يورث جلاء القلب من صداه، وصدأ القلب الغفلة والهوى، وجلاؤه الذكر، والتوبة، والاستغفار.

١٦- يحط الخطايا ويذهبها، فهو من أكبر الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات.

١٧- يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه.

١٨- العبد إذا تعرف إلى الله ﷻ بكثرة ذكره في الرخاء، عرفه الله ﷻ عند الشدة والبلاء.

١٩- سبب نزول السكينة، وغشيان الرحمة، كما ورد في الحديث[١].

٢٠- سبب اشتغال اللسان عن الغيبة، والنميمة، والكذب، فلا سبيل إلى السلامة من هذه الآفات، إلا بكثرة ذكر رب الأرض والسماوات.

٢١- مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو مجالس الشياطين.

٢٢- من أيسر العبادات، وهو أجَلُّها وأفضلها.

٢٣- غراس الجنة؛ عن جابر عن النبي ﷺ، قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»[٢].

٢٤- العطاء والفضل الذي رتب عليه، لم يرتب على غيره من الأعمال، ففي الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به، إلا رجل عمل أكثر منه**»[٣]، ومن قال: «**سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة، حُطت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر**»[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٨٠٤/ الرسالة)، والحاكم (٦٣٠٣)، والطبراني (١١٢٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٣)، وغيرهم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٩٦١)، و«السنة» (٣١٨).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي، وابن حبان، وغيرهما، وسبق الكلام عليه عند «٨- نعمة الحياة».

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٩٢، ٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١)، والترمذي (٣٤٦٨)، وابن ماجه (٣٧٩٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١)، والترمذي (٣٤٦٦)، وابن ماجه (٣٨١٢)، وأحمد (٧٩٩٦، ١٠٦٣١ / الرسالة)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

=

٢٥- دوام ذكر الرب سبحانه وتعالى يوجب الأمان من نسيانه، الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، قال -تعالى-: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

٢٦- الذكر نورٌ للذاكر في الدنيا، ونورٌ له في قبره، ونورٌ له في ميعاده، يسعى بين يديه على الصراط، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله -تعالى-، قال -تعالى-: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

٢٧- الذكر هو رأس الأمر، فمن فُتِحَ له فيه فقد فُتح له باب الدخول على الله عز وجل، فليتطهر وليدخل على ربه عز وجل، يجد عنده كل ما يريد، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شيء، وإن فاته ربه عز وجل فاته كل شيء.

٢٨- في القلب خلَّة وفاقة، لا يسدها شيء ألبتة، إلا ذكر الله عز وجل.

٢٩- الذاكر قريب من مذكوره، كما في الحديث القدسي: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[1]، وهذه هي المعية الخاصة، معية القرب، والولاية، والمحبة، والنصرة، والتوفيق.

٣٠- الذكر يعدل عتق الرقاب، ونفقة الأموال، والحمل على الخيل في سبيل الله، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أُسبح الله -تعالى- تسبيحات، أحب إليَّ من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله عز وجل».

٣١- الذكر رأس الشكر، فما شَكَر الله -تعالى- من لم يذكره، وقد أمر الله عز وجل بالذكر والشكر، فجمع بينهما في قوله -تعالى-: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا

=قوله: «**زبد البحر**» أي :في الكثرة والعظمة، وزبد البحر وهو ما يعلو على وجهه عند هيجانه وتموجه. «النووي على شرح مسلم».

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢)، وأحمد (١٠٩١٠/ الرسالة)، وابن حبان (٨١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٩٠٦)، و«المشكاة» (٢٢٨٥).

تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وجمع النبي ﷺ بينهما في وصيته لمعاذ بن جبيل رضي الله عنه، فقال: «**والله يا معاذ إني لأحبك، فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللَّهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»[1].

٣٢- في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله عز وجل، عن المُعلى بن زياد أن رجلًا قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال: «أذبه بالذكر».

٣٣- الذكر شفاء القلب ودواؤه، والغفلة مرضه، قال مكحول: «ذكر الله -تعالى- شفاء، وذكر الناس داءٌ».

قال بعضهم:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم فنترك الذكر أحيانًا فننتكس

٣٤- الذكر يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله عليه وملائكته أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز، قال الله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذۡكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب].

٣٥- مجالس الذكر مجالس الملائكة، ففي الصحيحين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة فضلًا عن كتاب الناس يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله -تعالى-، تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم تعالى – وهو أعلم بهم – ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد تحميدًا، وتمجيدًا،**

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٥١٩)، والنسائي (١٣٠٢)، وأحمد (٢٢٠١٨، ٢٢٠٢٥/ الرسالة)، وابن حبان (٢٠٢٠)، والحاكم (١٠١٠، ٥١٩٤)، من حديث معاذ رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح أبي داود» (١٣٦٢)، وفي «صحيح الجامع» (٧٩٦٩).

وأكثر لك تسبيحًا. قال: فيقول: ما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: فيقول: هل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب، ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها، كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبةً. قال: فيقول: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب، ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها، كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة. قال: يقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجةٍ. قال: هم الجلساء، لا يشقى بهم جليسهم»[1].

٣٦- الله ﷻ يباهي بالذاكرين ملائكته، عن أبي سعيد الخدري، قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثًا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله -تعالى-، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا؛ قال: «**آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟**»، قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: «**أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل، فأخبرني أن الله -تبارك وتعالى- يباهي بكم الملائكة**»[2].

٣٧- مدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك، ويقال في سبب ذلك: أن السِّتَّارَ إذا كشف عن ثواب الأعمال يوم القيامة، لا يجد الناس عملًا أكثر ثوابًا من الذكر.

٣٨- جميع الأعمال إنما شُرعت إقامةً لذكر الله ﷻ، كما قال -تعالى-: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩)، وأحمد (٧٤٢٨، ٨٧٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وقوله: «**فضلًا**» معناهُ: أنهم ملائكة زائدون على الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق، فهؤلاء السيارة لا وظيفة لهم، وإنما مقصودهم حلق الذكر.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠١)، والترمذي (٣٣٧٩)، والنسائي (٥٤٢٦)، وأحمد (١٦٨٣٥)، وابن حبان (٨١٣)، وغيرهم من حديث معاوية رضي الله عنه.

٣٩- ذكر الله ﷻ ينوب عن كثير من التطوعات ويقوم مقامها.

٤٠- ذكر الله ﷻ يعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لا يطيق فعله بدونه، وقد عَلَّمَ النبي ﷺ ابنته فاطمة وعليًا رضي الله عنهما أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين، ويحمدا ثلاثًا وثلاثين، ويكبرا أربعًا وثلاثين، لما سألته الخادم، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن، والسعي، والخدمة، فعلمها ذلك، وقال: «**إنه خير لكما من خادم**»[1].

٤١- عُمَّالُ الآخرة في مضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيروا، سبق المفردون**»، قالوا: ما المفردون؟ قال: «**الذين اهتروا في ذكر الله -تعالى-، يضع الذكر عنهم أوزارهم**»[2]، وقوله: اهتروا، أي: أُولِعُوا.

٤٢- الجبال والقفار تستبشر وتتباهى بمن يذكر الله عليها، قال ابن مسعود: «إن الجبل لينادي الجبل باسمه، أمرَّ بك اليوم أحد يذكر الله ﷻ؟ فإذا قال: نعم، استبشر».

٤٣- كثرة الذكر أمان من النفاق، فقد قال الله ﷻ عن المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، ولهذا - والله أعلم - ختم الله -تعالى- سورة المنافقين

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٠٥، ٥٣٦١)، ومسلم (٢٧٢٧)، وأبو داود (٥٠٦٢)، والترمذي (٣٤٠٨)، وأحمد (٧٤١، ٩٩٦)، من حديث علي رضي الله عنه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه-: «بلغنا أنه من حافظ على هذه الكلمات، لم يأخذه إعياء فيما يعانيه من شغل ومن غيره». «الوابل الصيب».

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٧٦)، وأحمد (٨٢٧٣)، وابن حبان (٨٥٨)، والحاكم (١٨٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (٥٠٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعند أحمد: «**يُهترون في ذكر الله**»، وإسناده صحيح على شرط مسلم رحمه الله.

والرواية التي ذكرها المصنف «**اهترُوا**» عند البيهقي في «الشعب» (٥٠٤)، وقال البيهقي بعد ذكر هذه الرواية من طريق آخر، قال: «والإسنادُ الأول أصحُّ».

وقوله: «**يهترون**» أي: يولعون، أي مولع به، لا يتحدث بغيره، ولا يفعل غيره.

فائدة هامة تذكر في هذا المقام: ذكرها الألباني رحمه الله، في «السلسلة الصحيحة» عند حديث رقم (١٣١٧)، قال: «كان من دواعي تخريج هذا الحديث، أنه وقعت هذه اللفظة في «الشعب»، هكذا «يهتزون» بالزاي حيث تقرأ: «يهتزون»، فبادرت إلى تخريجه وضبط هذه اللفظة؛ خشية أن يُبادر بعض الصوفية الرَّقَصة إلى الاستدلال به على جواز ما يفعلونه، من رقص واهتزاز، يمينًا ويسارًا، جاهلين أو متجاهلين أنه لفظ محرف... إلخ».

بقولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وسُئل علي ﷺ عن الخوارج: أمنافقون هم؟ قال: «لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلًا».

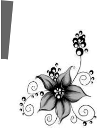
٤٤- للذكر لذة من بين الأعمال لا يشبهها شيء، قال مالك بن دينار: «ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله ﷻ».

٤٥- في دوام الذكر تكثير لشهود العبد يوم القيامة، وكان أحد السلف إذا سار في طريق، ولم يذكر الله ﷻ، رجع وأخذ الطريق من أوله، وقال: إني أحب أن تشهد لي كل البقاع التي مررت عليها، أني ذاكر لله ﷻ.





١٢- فوائد الصلاة على النبي ﷺ



١- امتثال أمر الله ﷻ في قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٢- موافقته ﷻ، وموافقة ملائكته، كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٣- حصول عشر صلوات من الله ﷻ على المصلي بالصلاة مرة واحدة على النبي ﷺ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**من صلى عليَّ واحدة، صلى الله عليه عشرًا**»[١].

٤- الصلاة عليه ﷺ سبب للحصول على شفاعته ﷺ يوم القيامة، قال النبي ﷺ: «**إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاةً، صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة، حلت له الشفاعة**»[٢].

٥- كثرة الصلاة على النبي ﷺ، سبب لكفاية العبد ما أهمه، عن يعقوب بن زيد ابن طلحة التيمي، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني آتٍ من ربي، فقال: ما من عبدٍ يصلي عليك صلاة، إلا صلى الله عليه بها عشرًا**»، فقام إليه رجل، فقال: يا رسول الله، أجعل نصف دعائي لك؟ قال: «**إن شئت**»، قال: ألا أجعل ثلثي دعائي؟ قال: «**إن شئت**»، قال: ألا أجعل دعائي لك كله؟ قال: «**إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة**»[٣].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٠٨)، والترمذي (٤٨٥)، وأبو داود (١٥٢٧)، والنسائي (١٢٩٥)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨٤)، والترمذي (٣٦٢٣)، وأبو داود (٥١٩)، والنسائي (٦٧٧)، وأحمد (٦٥٦٨)، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٣١١٤)، والجهضمي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (١٣)، وقال الألباني رحمه الله: «صحيح مرسل».

٦- يُرجى إجابة الدعاء إذا قدم قبله الصلاة على النبي ﷺ؛ سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو في صلاته، لم يمجد الله -تعالى-، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال ﷺ: «**عجَّل هذا**»، ثم دعاه، فقال له أو لغيره: «**إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه ﷻ، والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بعد بما يشاء**»(١).

٧- أنها سبب لدوام محبته للرسول ﷺ، وزيادتها، وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به؛ لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه؛ تضاعف حبه له، وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه.

٨- أنها سبب لإلقاء الله -سبحانه- الثناء الحسن للمصلي عليه بين أهل السماء والأرض؛ لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ﷺ ويكرمه ويشرفه، والجزاء من جنس العمل، فلابد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك.

٩- أنها سبب للبركة في ذات المصلي، وعمله، وعمره، لأن المصلي داع ربه أن يبارك عليه وعلى آله، وهذا الدعاء مستجاب والجزاء من جنسه.

١٠- أنها سبب لهداية العبد، وحياة قلبه، فإنه كلما أكثر الصلاة عليه وذكره استولت محبته على قلبه، فلا يبقى في قلبه معارضة لشيء من أوامره.

١١- أنها سبب لعرض اسم المصلي عليه، وذكره عنده. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن لله ملائكة سياحين في الأرض، يبلغوني من أمتي السلام**»(٢). وكفى بالعبد نبلًا أن يُذكر اسمه بالخير بين يدي رسول الله ﷺ، وقد قيل في هذا المعنى:

ومن خطرت منه ببالك خطرة … حقيقٌ بأن يسمو وأن يتقدما

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧)، وأحمد (٢٣٩٣٧)، وابن خزيمة (٧١٠)، وابن حبان (١٩٦٠)، والحاكم (٨٤٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٨٥٤)، من حديث فضالة بن عُبيدٍ رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح أبي داود» (١٣٣١)، وتحقيق «فضل الصلاة» (١٠٦) وقال: «صحيح».

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (١٢٨٢)، وأحمد (٣٦٦٦، ٤٢١٠ الرسالة)، والدارمي (٢٨١٦)، والنسائي في «الكبرى» (١٢٠٦، ٩٨١١)، وابن حبان (٩١٤)، والحاكم (٣٥٧٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢١٧٤)، و«المشكاة» (٩٢٤)، و«فضل الصلاة» (٢١).

١٢- أنها سبب لتثبيت القَدَم على الصراط، والجواز عليه، لحديث عبد الرحمن بن سمرة، الذي رواه عنه سعيد بن المسيب في رؤيا النبي ﷺ، وفيه: «ورأيت رجلًا من أمتي، يزحف على الصراط، ويحبو أحيانًا، ويتعلق أحيانًا، فجاءته صلاته عليَّ، فأقامته على قدميه، وأنقذته»[1].

١٣- الصلاة عليه ﷺ أداء لأقل القليل من حقه، وشكر له على نعمته التي أنعم الله بها علينا.

١٤- أنها متضمنة لذكر الله، وشكره، ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله، فالمصلي عليه ﷺ قد تضمنت صلاته عليه ذكر الله، وذكر رسوله ﷺ، وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله.

١٥- ومنها أن الصلاة عليه ﷺ من العبد هي دعاء، ودعاء العبد وسؤاله من ربه نوعان: **أحدهما**: سؤاله حوائجه ومهماته، **الثاني**: سؤاله أن يثني على خليله وحبيبه ﷺ، ويزيد في تشريفه وتكريمه. فالمصلي عليه ﷺ قد صرف سؤاله ورغبته وطلبه إلى محاب الله -تعالى- ورسوله ﷺ، وآثر ذلك على طلبه حوائجه ومحابه هو، والجزاء من جنس العمل، فمن آثر الله على غيره، آثره الله على غيره.

١٦- الصلاة عليه ﷺ سبب لمحبته للعبد، فإنها إذا كانت سببًا لزيادة محبة المصلي عليه له، فكذلك هي سبب لمحبته هو للمصلي عليه ﷺ.

١٧- أنها سبب لطيب المجلس، وأن لا يعود حسرة على أهله يوم القيامة. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم ﷺ، إلا كان عليهم تِرَةً يوم القيامة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم**»[2].

---

(١) إسناده منكر جدًّا: أخرجه ابن شاهين في «الترغيب في فضائل الأعمال» (٥٢٦)، وأمالي بن بشران (٢٤٩)، من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٨٦) وقال في «السلسلة الضعيفة» (٧١٢٩): «منكر جدًّا».

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٨٠)، وأحمد (١٠٢٢٦)، والطيالسي (٢٤٣٠)، والحاكم (١٨٤٦) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما. وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٦٠٧)، و«الصحيحة» (٧٤).

١٨- أنها تنفي عن العبد اسم البخل إذا صلى عليه عند ذكره ﷺ. عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**البخيل الذي من ذكرت عنده، فلم يصلِ عَلَيَّ**»[(١)].

١٩- نجاته من الدعاء عليه بِرَغِمَ أنفه، إذا تركها عند ذكره ﷺ. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يُدخلاه الجنة**»[(٢)].

٢٠- أنها ترمي بصاحبها على طريق الجنة، وتخطئ بتاركها عن طريقها. عن محمد بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ذكرت عنده فلم يصلِ عليَّ، خطئ طريق الجنة**»[(٣)].

٢١- أنها سبب لنيل رحمة الله له؛ لأن الرحمة إما بمعنى الصلاة كما قال طائفة، وإما من لوازمها وموحياتها على القول الصحيح، فلابد للمصلي عليه من رحمة تناله.

ونختم هذا الفصل ببيان معنى قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «المقصود من هذه الآية أن الله عز وجل أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه في الملأ الأعلى عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر -تعالى- العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا».

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٤٦)، وأحمد (١٧٣٦، ٩٨٠٠)، والنسائي في «الكبرى» (٨٤٠٦)، وابن حبان (٩٠٩)، والحاكم (٢٠١٥)، من حديث الحسين رضي الله عنه، وصححه الألباني -رحمه الله تعالى- في «صحيح الجامع» (٢٨٧٨)، و«المشكاة» (٩٣٣).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، وأحمد (٧٤٤٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٤٦)، وابن خزيمة (١٨٨٨)، وابن حبان (٩٠٨)، والحاكم (٢٠١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٥١٠)، و«المشكاة» (٩٢٧)، و«الإرواء» (٦).

(٣) صحيح: أخرجه الطبراني (٢٨٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٤٧٢)، وقال: «هذا مرسل»، وفي «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٤٢)، من حديث الحسين رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٤٥)، و«الصحيحة» (٢٣٣٧).

وقال ابن القيم ﵀: «أو المعنى أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله ﷺ؛ فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليمًا، لما نالكم ببركة رسالته، ويمن سفارته من خير الدنيا وشرف الآخرة».

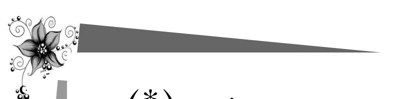
قال أبو العالية: «صلاة الله -تعالى- ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء».

وقال ابن عباس: «يصلون: يباركون».

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «الصلاة المأمور بها فيها -أي: في الآية المتقدمة- هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه، وإظهار لفضله، وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه»[1].



(١) «البحر الرائق» للمؤلف (ص ٩٤) ط. الخلفاء.



١٣ – فضل العلم على المال (*)



١ – العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الملوك والأغنياء.

٢ – العلم يحرس صاحبه، وصاحب المال يحرس ماله.

٣ – العلم يزكو على النفقة، والمال تنقصه النفقات.

٤ – صاحب المال إذا مات فارقه ماله، والعلم يدخل معه قبره.

٥ – العلم حاكم على المال، والمال لا يحكم على العلم.

٦ – المال يحصل للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن.

٧ – العلم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة.

(*) **فضل العلم وأهله وطلبه:**

اتفق الفقهاء على فضل العلم وأهله، وفضل العالم على العابد، وأن الاشتغال بطلبه أفضل من الاشتغال بنوافل الصلاة، والصيام، والتسبيح، وغيرها من نوافل العبادات البدنية، وذلك لتكاثر الآيات والأخبار والآثار الدالة على فضل العلم. «الموسوعة الفقهية» (١٥٣/٣٢).

قال الإمام الشافعي: «طلبُ العلم أفضل من صلاة النافلة». قلْتُ: وصح في ذلك حديثًا يُراجع في «صحيح الجامع» (٤٢١٤).

وقد روى أبو داود (٣٦٣٨)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٦١٢)، وابن حبان (٨٨)، وغيرهم، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتانُ في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ**» حسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧)، و«صحيح الترغيب».

وعند ابن ماجه (٢٣٩)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وفيه: «**إنه ليستغفر للعالم من في السماوات، ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر**» وصححه الألباني رحمه الله عند ابن ماجه.

وعند الطبراني (٧٩١٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه، وفيه «**إنَّ الله وملائكته حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليُصلون على معلم الناس الخير**» صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٣٨)، و«صحيح الترغيب».

٨ – النفس تزكوا وتشرف بجمع العلم وتحصيله، والمال لا يزكيها، فحرصها على العلم عين كمالها، وحرصها على المال عين نقصها.

٩ – المال يدعوها إلى الطغيان، والفخر، والخيلاء، والعلم يدعوها إلى التواضع، والقيام بالعبودية.

١٠ – العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها، والمال باب بينها وبينها.

١١ – غنى العلم أجل من غنى المال؛ فإن غنى المال بأمر خارجي عن حقيقة الإنسان.

غنيت بلا مالٍ عن الناس كلهم   وإن الغنى العالي عن الشيء لا به

١٢ – المال يستعبد محبه وصاحبه، فيجعله عبدًا له، كما قال النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم**»[1]، والعلم يستعبده لربه وخالقه، فهو لا يدعوه إلا إلى عبودية الله وحده.

١٣ – حب العلم وطلبه أصل كل طاعة، وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة.

١٤ – قيمة الغني ماله، وقيمة العالم علمه، فهذا متقوم بماله، فإذا عَدِم ماله عُدِمَت قيمته، فبقي بلا قيمة، والعلم لا تزول قيمته، بل هي في تضاعف وزيادة دائمًا.

١٥ – جوهر المال من جنس جوهر البدن، وجوهر العلم من جنس جوهر الروح، كما قال يونس بن حبيب: «علمك من روحك، ومالك من بدنك»، والفرق بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن.

١٦ – العالم لو عُرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضًا من علمه، والغني العاقل إذا رأى شرف العالم، وفضله، وابتهاجه بالعلم، وكماله به، يود لو أن له علمه بغناه أجمع.

١٧ – ما أطاع الله أحدٌ قط إلا بالعلم، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٨٧)، والترمذي (٢٣٧٥)، وابن ماجه (٤١٣٦)، والبيهقي في «الكبرى» (١٨٤٩٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١٨ – العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله، وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله.

١٩ – اللذة الحاصلة من غني المال، إما لذة وهمية، وإما لذة بهيمية، فإن صاحبه إذا التذَّ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذة وهمية خيالية، وإن التذ بإنفاقه في شهواته؛ فهي لذة بهيمية، وأما لذة العلم فلذة عقلية روحانية، وهي تشبه لذة الملائكة وبهجتها، وفرق بين اللذتين.

٢٠ – عقلاء العالم مطبقون على ذم الشَّرَه في جمع المال، والحرص عليه، وتنقصه، والإزراء به، ومطبقون على تعظيم الشره في جمع العلم، وتحصيله، ومدحه ومحبته، ورؤيته بعين الكمال.

٢١ – عقلاء العالم مطبقون أيضًا على تعظيم الزاهد في المال، المعرض عن جمعه، الذي لا يلتفت إليه ولا يجعل قلبه عبدًا له، ومطبقون أيضًا على ذم الزاهد في العلم، الذي لا يلتفت إليه، ولا يحرص عليه.

٢٢ – المال إنما يمدح صاحبه بتخليه عنه وإخراجه، والعلم إنما يمدح بتحليه به واتصافه به.

٢٣ – غني المال مقرون بالخوف والحزن، فهو حزين قبل حصوله، خائف بعد حصوله، وكلما كان أكثر كان الخوف أقوى، وغنى العلم مقرون بالأمن، والفرح، والسرور.

٢٤ – الغني بماله لابد أن يفارقه غناه، فيتعذب ويتألم بمفارقته، والغني بالعلم لا يزول، فلا يتعذب صاحبه ولا يتألم، فلذة الغني بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم، ولذة الغني بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم.

٢٥ – الغنى بالمال هو عين فقر النفس، والغنى بالعلم هو غناها الحقيقي، فغناها بعلمها هو الغنى، وغناها بمالها هو الفقر.

٢٦ – من قُدِّمَ وأُكرم لماله، إذا زال ماله ذهب تقديمه وإكرامه.

كما قال بعضهم:

وكان بنو عمي يقولون مرحبًا ... فلما رأوني معسرًا مات مرحب

أما من قدم وأكرم لعلمه فإنه لا يزداد إلا تقديمًا وإكرامًا.

٢٧ – تقديم الرجل لماله هو عين ذمه، فإنه نداء عليه بنقصه، وأنه لولا ماله لكان مستحقًا للتأخير والإهانة، وأما تقديمه وإكرامه لعلمه، فإنه عين كماله، إذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به، لا بأمر خارج عن ذاته.

٢٨ – طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين، فهو طالب ما لا سبيل له إليه، بخلاف طالب الكمال بعلمه.

٢٩ – اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هي حال تجدده فقط، وأما حال دوامه فإما أن تذهب تلك اللذة، وإما أن تنقص.

وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان، فإن لذته في حال بقائه مثلها في حال تجدده بل أزيد.

٣٠ – جمع المال مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن: نوع قبله، ونوع عند حصوله، ونوع بعد مفارقته.

فأما النوع الأول: فهو المشاق، والأنكاد، والآلام، التي لا يحصل إلا بها.

وأما النوع الثاني: فمشقة حفظه، وحراسته، وتعلق القلب به.

وأما النوع الثالث: ما يحصل للعبد بعد مفارقته.

وغنى العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات، فهو كفيل بكل لذة وفرحة، وسرور، ولكن لا يُنال إلا على جسر من التعب، والصبر، والمشقة.

٣١ – لذة الغني بالمال مقرونة بخلطة الناس، ولو لم يكن إلا خَدَمه، وأزواجه، وسراريه، وأتباعه، إذ لو انفرد الغني بماله وحده، لم يكمل انتفاعه بماله، ولا التذاذه به، وهذه الآفات معدومة في الغني بالعلم.

٣٢ – المال لا يراد لذاته وعينه، فإنه لا يحصل بذاته شيءٌ من المنافع أصلًا، فإنه لا يشبع، ولا يروي، وإنما يراد لهذه الأشياء، فإنه لما كان طريقًا إليها أريد إرادة الوسائل، ومعلوم أن الغايات أشرف من الوسائل.

٣٣ – غني المال يبغض الموت ولقاء الله، فإنه لحبه ماله يكره مفارقته ويحب بقاءه، ليتمتع به كما يشهد به الواقع.

وأما العلم فإنه يحبب العبد لقاء ربه، ويزهده في هذه الحياة النكدة الفانية.

٣٤ – الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم، والعلماء يموتون ويحيا ذكرهم، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «مات خُزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر» فخُزان الأموال أحياء كأموات، والعلماء بعد موتهم أموات كأحياء[1].

٣٥ – القلب ملك البدن، والعلم زينته، وعُدَّته وماله، وبه قوام ملكه، والملك لابد له من عددٍ وعدة ومال وزينة، فالعلم هو مركبه وعدته وجماله، وأما المال فغايته أن يكون زينة، وجمالًا للبدن، إذا أنفقه في ذلك، فإذا خزنه ولم ينفقه، لم يكن زينة ولا جمالًا، بل نقصًا ووبالًا.

ومعلوم أن زينة الملك وما به قوام ملكه أجل وأفضل من زينة رعيته وجمالهم، فقوام القلب بالعلم، كما أن قوام الجسد بالغذاء.

٤٦ – القدر المقصود من المال هو ما يكفي العبد ويقيمه، ويدفع ضرورته، حتى يتمكن من قضاء جهازه، ومن التزود لسفره إلى ربه عز وجل، فإذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السفر إلى ربه، وعن قضاء جهازه.

وأما العلم النافع، فكلما ازداد منه ازداد في تعبية الزاد، وقضاء الجهاز وإعداد عدة المسير، والله الموفق، وبه الاستعانة، ولا حول ولا قوة إلا به، فعدة هذا السفر هو العلم والعمل، وعدة الإقامة جمع الأموال والادخار، ومن أراد شيئًا هيأ له عدته، قال -تعالى-: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

---

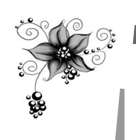
(١) **قال بعض السلف:** «شتان بين أقوام موتى، تحيا القلوب بذكرهم، وبين أقوام أحياء، تموت القلوب بمُخالطتهم». «الرسالة التبوكية».

وقال قائلهم:

ومن عجبٍ أني أحنُّ إليهمُ ... فاسألُ عَنْهُم من لقيتُ وهم مَعي

وتطلُبُهم عيني وهُمْ في سوادها ... ويشتاقُهُم قلبي وهم بين أضلُعي

من «الجواب الكافي».



فهرس المحتويات



